

## الشباب والشيب في الشعر الأندلسي دراسة موضوعية نفسية

رعدة علي الزبون\*

### ملخص

سعى البحث إلى الوقوف على صورتَي الشباب والشيب في الشعر الأندلسي، ودراسة الأشعار التي نُظمت في هذا الموضوع، وتحليلها تحليلًا موضوعيًا نفسيًا. وقد تبين أن لكل مرحلة منهما ما يميزها عن الأخرى من الناحية الجسميّة، والنفسية، والاجتماعية. فكانت مرحلة الشباب بما فيها من مقومات كثيرة تجعل الإنسان مُقبلًا على الحياة مُحبًا لها، ساعيًا إلى تحقيق ما يسعى إليه من آمال وطموحات، في حين كانت مرحلة الشيب مصدرًا للشكوى والتعبير عما يعانيه الإنسان فيها من جوانب عذّة: جسميّة، ونفسية، واجتماعية.... ولهذا وجدنا الشعراء يقارنون بين هاتين المرحلتين مُقدمين للشباب على الشيب ومُتمنين الرجوع لأيامه وعدم مفارقتها. ومن أكثر الصّعوبات التي اشتكى منها الشعراء في مرحلة الشيب، ضعف قوّتهم الجسميّة، وقعودهم عن العمل، وموقف المرأة الزّافض لهم بعد شيبهم وكبر سنّهم، وإحساسهم بدنوّ الأجل وإقتراب الموت منهم، وكشفت أشعارهم في هذا الجانب عن تقربهم إلى الله -تعالى- والتفكير فيما مضى من حياتهم ومحاسبة أنفسهم ولومها على ما كان من تقصير، والنظر إليها بعين النّذير، متخذين من الشيب وسيلة لجزرها عن كل ما لا يليق بالإنسان فعله في هذه المرحلة العمرية، ودعوتها للرجوع إلى الله تعالى بالتوبة والإنابة.

الكلمات الدالة: الشباب، الشيب، الشعر الأندلسي.

### المقدمة

الأشعار التي نظمها الشعراء الأندلسيون في وصف مرحلتَي: الشباب والشيب والكبر، ويعبرون عن موقف الإنسان منهما من جوانبهما كافة.

وتقوم مادّة هذه الدّراسة على الأشعار التي نظمها الشعراء الأندلسيون في هذا الموضوع بصرف النظر عن العصر الذي كانوا يعيشون فيه، وبصرف النظر أيضًا عن كونهم من الشعراء المكثّرين أو المقلّين. ولقد تمّ الوقوف على أكثر القصائد والمقطوعات الشعرية ذات العلاقة بموضوع هذه الدّراسة من المصادر الأندلسية على تنوّع موضوعاتها، من كتب أدبيّة، وتراجم تاريخيّة، ودواوين شعريّة.

وتأتي هذه الدّراسة في تمهيد وبابين وخاتمة. أمّا التمهيد فتناول مرحلتَي الشباب والشيب، فأشارت فيه الباحثة إلى السمات العامّة التي تميّز بها كلّ مرحلة منهما عن الأخرى، وقد غُيّت في هذا الجانب بتوضيح طبيعة كلّ مرحلة منهما وأثرها الجسمي والنّفسي والاجتماعي في الإنسان، مُستضيئة في هذا الجانب بالدراسات النفسية والاجتماعية التي درست هاتين المرحلتين من حياة الإنسان.

وأما الباب الأوّل فتناولت فيه الباحثة الأشعار التي قالها الشعراء الأندلسيون في تصوير موقفهم من مرحلة الشباب ونظرتهم لها، ومكانتها الكبيرة في نفوسهم وتعلّقهم بها، وأما

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على رسوله الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فتشكّل مرحلتا الشباب والشيب في حياة الإنسان ثنائيةً صديّة، تُباين إحداها الأخرى في كثير من الجوانب إن لم يكن كلّها؛ فحياة الإنسان في مرحلة الشباب تختلف اختلافاً كبيراً عنها في مرحلة الكبر والمشيب، ففيها يعيش الإنسان بكامل قوّته وطاقته الجسميّة والعقليّة، ويكون مُقبلًا على الحياة مُخطّطًا لها ساعيًا لتحقيق ذاته، محاولًا الاستمتاع بكل ما فيها من مباحج الحياة ومتعتها، ولكن كلّ هذا يتحوّل إلى ما يناقضه تمامًا في مرحلة الكبر والمشيب، الأمر الذي يُحدث تغييرًا جذريًا في حياة الإنسان من جوانب عذّة: جسميّة، ونفسية، واجتماعية، كما يُحدث تغييرًا في نظرة الإنسان وموقفه من الحياة، ما مضى منها وما هو قادم.

ولكي نتبيّن موقف الإنسان من هاتين المرحلتين من حياته بصورة واضحة جليّة فإنّ هذه الدّراسة تهدف إلى تحليل

\* جامعة العلوم الإسلامية العالمية، عمّان، الأردن. تاريخ استلام البحث 2013/7/10، وتاريخ قبوله 2014/10/1.

إلى الاستقلال والاستقرار والنضج الانفعالي، وخلال هذه المرحلة ينمو الشاب اجتماعيًا ويستقل ويؤكد ذاته ويتصل برفاق سنّه وأصدقائه يساير سلوكهم ويغيّره ويتألف معهم ويتنافس معهم ويمارس الرّعاية، وتنمو اتجاهاته وقيمه الأخلاقية ومعاييره الدينية، ويتعلّم تحمّل المسؤولية الاجتماعية وينمو ذكاؤه الاجتماعي ويختار مهنة ويستعدّ لها وتتحدّد فلسفته في الحياة<sup>(3)</sup>.

ولما كانت مرحلة الشباب من أهم المراحل التي يسعى فيها الإنسان إلى تحقيق ذاته وإشباع رغباته المختلفة، وإبراز ما لديه من إمكانيات وطاقت يخدم فيها نفسه ومجتمعه، فإنّها من أجمل محطات الحياة التي يحياها الإنسان؛ إذ يشعر أنّ لديه دورا يؤديه في الحياة، وأنّ له أهدافا وغايات يسعى لتحقيقها في هذه المرحلة التي تعد من أنسب مراحل عمر الإنسان التي يبحث فيها عن كلّ ما يجلب له السعادة والمتعة، كما تعد من أجمل محطات الحياة وأحبّها إلى النفس إلى درجة أن الإنسان يتمنّى لو أنّها لا تنتهي وألا يغادرها، ولقد عبّر شاعر العربية المتنبّي عن هذا الإحساس وصوّر جمال هذه المرحلة من حياة الإنسان وموقعها من نفسه، حتّى إنه بكى عليها وهو ما يزال فيها قبل أن يفارقه بالفعل، وذلك حين قال<sup>(4)</sup>: الكامل

ولقد بكيتُ على الشبابِ ولمّتي  
مُودّةً ولماءٍ وجهي رُونقُ  
حذراً عليه قبلَ يومٍ فراقه

حتّى لكِدتُ بماءٍ جفني أشرقُ

وليس أدل على أنّ مرحلة الشباب من أجمل مراحل حياة الإنسان وأكثرها رونقا أنّ الله -عزّ وجل- جعل أهل الجنة يدخلون الجنة وهم شباب، حيث يقول النّبي -عليه السّلام- "أهل الجنة شباب جرد مرد كحل، لا يفنى شبابهم، ولا تبلى ثيابهم"<sup>(5)</sup>، وفي رواية أخرى "يدخل أهل الجنة الجنة جرداً مرداً أبناء ثلاث وثلاثين سنة"<sup>(6)</sup>.

ومع كل النواحي الإيجابية التي تمتاز بها مرحلة الشباب إلا أنّ هناك بعض الجوانب السلبية التي تظهر فيها أيضاً، فهي مرحلة تختلط بها عناصر متناقضة من الضعف والقوّة، والجهل والمعرفة، والطراوة والصّلاب، والطيش والبصيرة<sup>(7)</sup>، وتكتنف هذه المرحلة مجموعة من المشكلات: الجنسية، والصّحية، والأسريّة، والدينيّة، والأخلاقية<sup>(8)</sup>، وكلّ هذه المشكلات ممكنة الحدوث وبقوّة إذا لم يوجّه الشباب التوجيه المناسب من قبل الأسرة والمجتمع، ذلك لأنّ هذه المرحلة تمثّل "مرحلة انتقال حرجة تعتبر مفصل فاصل واصل بين مرحلة اللانضج في الطّفولة والنضج في الرشد، وهنا نقطة ضعف وثغرة" ويحتاج الشاب إلى مساعدة للأخذ بيده وهو يعبرها حتى

الباب الثّاني فعرضت فيه لدراسة موقفهم من مرحلة الشيب وتصويرهم للمعاناة والألم الذي عاشوه في هذه المرحلة، وكيف حاولوا التكيّف معه.

وأما الخاتمة فعرضت فيها الباحثة لأهم النتائج التي خلصت إليها الدراسة بعد تحليل الأشعار التي قالها الشعراء الأندلسيون في مرحلتي الشباب والشيب، موضوعياً ونفسياً.

## بين مرحلتي الشباب والشيب:

### أولاً: مرحلة الشباب

تشكّل هذه المرحلة من مراحل حياة الإنسان بداية وانطلاقاً وإقبالاً على الحياة بكل ما فيها من أمل في القادم، وبحث عن السعادة والتفوّق، ولهذه المرحلة خطرها الكبير في حياة الإنسان لما يميّزها عن المراحل السابقة من حياته واللاحقة؛ إذ تشكّل تغييراً ملحوظاً في شخصيّة الإنسان يتبدّى في خروجه من مرحلة الطّفولة التي كان معتمداً فيها على من حوله: مادياً ومعنوياً، ليدخل بعدها في مرحلة جديدة يبدأ فيها بتكوين ذاته، وفيها تبدأ شخصيّة الإنسان بالتطوّر والاختلاف عما كانت عليه في المرحلة السابقة، حيث يصبح أكثر نضجاً ونموّاً جسمياً وعقليّاً ونفسياً، ويبدأ فيها أيضاً بالخروج من دائرة الآخرين، فيصبح بعد أن كان معتمداً عليهم مادياً ومعنوياً أكثر قدرة على الاعتماد على نفسه، محاولاً أن يكون لنفسه شخصيّة مستقلة، وثمة مراحل أخرى يسعى الشباب إلى تحقيقها فهي "مرحلة الشباب مرحلة تحقيق الذات ومرحلة الحب والمرح ومرحلة نمو الشخصية وصلفها"<sup>(1)</sup>.

ولدى الشباب في هذه المرحلة من الطّاقة الجسميّة والعقليّة ما يجعلهم أكثر إقبالاً على الحياة: عطاء وأخذاً، أمّا من جهة العطاء فقد حثّ النّبي -صلى الله عليه وسلّم- على اغتنام هذه المرحلة قبل مغادرتها إلى مرحلة الكبر والهرم فقال عليه السّلام: " اغتنم خمسا قبل خمس، شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلّك، وحياتك قبل موتك"<sup>(2)</sup>، ويأتي اغتنام الشباب قبل الهرم لأن الإنسان وقت شبابه يكون عنصراً فاعلاً قادراً على أن يعمل وينجز في المجال الذي يختطّه لنفسه سواء في مجال العلم أو العمل؛ فهو ما يزال في أوج عطائه وصفائه الذهني وقوته الجسميّة، ولا يتحقّق هذا إلا إذا وجهت هذه القدرات للتوجيه الصّحيح. وأمّا فيما يتصل بجانب الأخذ فيتمثّل في سعيه نحو إشباع ما أودعه الله فيه من الحاجات الجسميّة والنفسية والغريزيّة، فهذه الحاجات تتولّد نتيجة ما تمتاز به مرحلة الشباب من نمو الانفعالات وتتميّز بالسيولة والعنف والتذبذب والتناقض والقوّة والحماس والحساسية إلى أن تصل

ويفضي الضعف العام الجسمي والنفساني الذي يعاني منه الإنسان في هذه المرحلة إلى مشاعر سلبية تجعله يشعر بدنو أجله والإحساس بقرب النهاية والخوف والقلق على ما تبقى من العمر والخوف من المرض ومن الوحدة والعزلة<sup>(13)</sup>.

وليس كل ما في مرحلة المشيب سلبيا وغير محمود، وإنما هناك بعض الجوانب الإيجابية المضيئة فيها؛ حيث يُنظر للكبير في السن بعين الاحترام والوقار، لمسيرته الطويلة التي قضاها في غمار الحياة، وجعلته يخرج منها بالحكمة والخبرة، الأمر الذي يجعل من الشيوخ مرجعا للشباب المقبلين على الحياة، ينهلون من خبرتهم وحكمتهم التي أفادوا منها هم أولا؛ فجعلتهم أكثر قربا من الله تعالى - بامتثال أوامره والانتهاز عما نهى عنه، ومصادق هذه الحقيقة نجده جليا في قوله تعالى - يصف الإنسان بعد الأربعين وقد رجع إليه وأناب: "حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي دُرِّيَّتِي إِنَّيْ تُثِيبُ إِلَيْكَ وَائِي مِنْ الْمُسْلِمِينَ) (الأحقاف: 15)

ومع كل الضعف الذي يعانيه الكبير في السن: نفسيا وجسميا إلا أن في الهدي الإلهي والنبوي ما يعززه من الناحية النفسية؛ ذلك لأن الله تعالى - جعل للكبير مكانة وتقديرا، إذ أشار النبي - عليه السلام - إلى ذلك بقوله: "إن الله ليستحي أن يعذب ذا شبيبة في الإسلام، ثم بكى عليه الصلاة والسلام فقيل له: ما يبكيك يا رسول الله؟ قال: أبكي ممن يستحي الله منه وهو لا يستحي الله"<sup>(14)</sup>، وقد حث النبي - عليه السلام - على إكرام ذي الشبيبة وإجلاله فقال: "إن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشبيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط"<sup>(15)</sup>. إن هذه المكانة لذي الشبيبة عند الله ورسوله تؤثر فيه إيجابا؛ حيث يصبح أكثر قربا من الله تعالى - وأكثر خشية ورجاء له، هذا من ناحية ومن ناحية ثانية فإنها تحث أبناء المجتمع على احترامه وتقديره، مما يخفف عنه ما يجده من المعاناة النفسية التي يجدها في كبره، كما تؤثر إيجابا فيه من الناحية السلوكية، إذ يصبح الإنسان محوطا بهالة من الوقار والاحترام؛ الأمر الذي يجعل منه رقبيا على سلوكياته، فيحاول أن يقوم ما اعوج منها، ويفكر قبل أن يقدم على فعل ما لا يناسب سنه، إرضاء لله تعالى -، واحتراما للمكانة التي جعلها الله ورسوله له في هذه المرحلة من مراحل حياته.

كان الهدف من الحديث السابق حول مرحلتي الشباب والشيب تبين الملامح العامة النفسية والجسمية للإنسان فيهما؛ لنحاول من خلال دراستنا للأشعار التي قالها الشعراء

يصل إلى مرحلة النضج بسلام<sup>(9)</sup>، وإن لم يجد الشاب من يوجهه ويأخذ بيده نحو الطريق الصحيح فسيكون الانحراف السلوكي مصيره الواضح، فيغلب عليه الخفة والطيش والتزق وعدم القدرة على تحمل المسؤولية وإتباع الشهوات والملذات.

## ثانيا: مرحلة الشيب:

من سنن الله تعالى - في هذا الكون أنه جعل لكل بداية نهاية، فكانت مرحلة المشيب النهاية الحتمية لمرحلة الشباب بكل ما فيها من قوة وعنفوان، ولما كانت مرحلة الشباب بداية إحساس الإنسان بقوته واستقلاله، وسعيه نحو تحقيق ذاته، وأمله وتقاوله في أيامه المقبلة، فإن مرحلة الكبر والمشيب التي تلت هذه المرحلة مختلفة تماما عما وجدناه في مرحلة الشباب؛ فهي المرحلة التي حط فيها الشباب رحله بعد رحلة طويلة سعى خلالها الإنسان نحو تأكيد ذاته وتحقيق ما كان يصبو إليه وإنجاز ما حلم بإنجازه، فوصل هذه المرحلة ضعيفا استنفدت مرحلة الشباب قواه، ولا غرو في تبدل حال الإنسان من القوة وقت شبابه إلى الضعف وقت كبره، فقد أشار الله تعالى - إلى ذلك بقوله "اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً" (سورة الزوم، 54).

وتباين مرحلة المشيب مرحلة الشباب من جوانب عدة، ففي الشباب - كما تبيننا سابقا - يكون الإحساس بالقوة والتميز والتفاؤل بعد قادم، ولكن الحال في المشيب يكون على العكس تماما، حيث يكون الضعف والانحدار في القدرات الوظيفية والعقلية واضحا<sup>(10)</sup>. وفي وقت الشباب وجدنا السعي نحو العمل والإنجاز وتحقيق الذات، ولكن في مرحلة المشيب لم يعد الوقت مناسباً لذلك، فقد حان الوقت الذي يخرج فيه الكبير من هذا الميدان ليدخل في مرحلة التقاعد، تلك المرحلة التي يعاني فيها الإنسان أزمة كبيرة تشكل لديه مجموعة من المشكلات النفسية والاجتماعية والإحساس بالفراغ الكبير وبدء عزلته تدريجياً عن المجتمع وابتعاد ذوي الحاجات الذين كانوا يلجأون إليه لقضاء حاجياتهم عندما كان في العمل، كل هذا قد يسبب الإحساس بفقدان أهميته للمجتمع وعدم فائدته، ويترتب على هذا التغير خمول جسمي وعقلي وقد تصاحب ذلك حالة اكتئاب<sup>(11)</sup>.

وفي الوقت الذي كان فيه الإحساس بالحياة والنشاط والإقبال على الحياة أبرز ما يتمتع به الإنسان وقت شبابه، فإن كل هذه الجوانب الإيجابية تقل إن لم تنعدم وقت المشيب، الأمر الذي ينتج عنه اضطرابات في السلوك إما بالانعزال والاكتئاب أو بالعدوانية ضد المحيطين به بإسقاط أسباب هذا الضعف عليهم<sup>(12)</sup>.

الأندلسيون في هذا الموضوع أن نستجلي هذه الملامح كما وصفوها شعرا من خلال تعبيرهم أنفسهم عن نظرتهم الذاتية وموقفهم النفسي كما عاشوه في هاتين المرحلتين، ومن هنا سنحاول في تحليلنا للأشعار التي قالوها في الشباب والشيب أن نجيب عن الأسئلة التالية:

كيف كان إحساس الشعراء الأندلسيين بمرحلة الشباب وكيف كانت نظرتهم لها؟ فهل كانوا على وعي بما فيها من مزيات إيجابية وهم ما يزالون شبابا قبل مغادرتها لمرحلة المشيب؟ وكيف كان تقبلهم لمرحلة المشيب وبداية ظهور الشيب في مفارقهم؟ وهل حاولوا التكيف معها على ما فيها من سلبيات؟ أم أنهم لم يتقبلوا مفارقة الشباب فبقوا واقفين على أطلاله باكين متحسرين عليه؟ وهل ثمة جوانب إيجابية لمرحلة المشيب هوتت عليهم تلك المشاعر السلبية وما في هذه المرحلة من معاناة؟

وانطلاقا مما تقدم ستقسم هذه الدراسة إلى المحورين الرئيسيين الآتيين:

- مرحلة الشباب في الشعر الأندلسي
- مرحلة الشيب والكبر في الشعر الأندلسي

#### أولاً: مرحلة الشباب

رسم الشعراء الأندلسيون صورة جميلة لمرحلة الشباب، عبّروا من خلالها عن إحساسهم بجمالها وتمييزها عن بقية مراحل الحياة كافة: جمالا، وحسنا، ونضارة، وحيوية، وقوة، وتقوا، وغيرها من المشاعر الإيجابية التي عبّروا عنها في هذا الجانب، ولم يأت تعبيرهم عن هذه المرحلة بقصائد ومقطوعات نظمها وهم يعيشون في مرحلة الشباب وعنفوانها، وإنما جاء تعبيرهم عن إحساسهم بجمالها وتمييزها لديهم في كثير من الجوانب - بصرف النظر عن المرحلة العمرية التي قالوها فيها - في سياق أشعارهم على تنوع موضوعات الشعر: المدح، والثناء، والغزل، والحنين للماضي والتشوق للأوطان... إلخ.

كان موضوع الحنين للماضي والتشوق للأوطان من أظهر الموضوعات التي صوّرت إحساس الشعراء الأندلسيين بجمال مرحلة الشباب وإحساسهم بتمييزها عن مراحل العمر الأخرى، حيث كانت هذه المرحلة بكل تفاصيلها من أجمل الأشياء التي اختزنتها ذاكرة الشعراء حول الماضي: زمانا ومكانا، فكانت صورتها (مرحلة الشباب) سرعان ما تعنّ على بالهم ويتذكرونها كلما داعب شدو الحمام أسماهم، أو هبت ريح الصبا محرّكة ما في ذاكرتهم من ذكريات جميلة عاشوها أيام شبابهم، ومن الأمثلة على هذا قول أبي حاتم الحجازي يتذكر أيام شبابه الخوالي، متحسرا على اللحظات الجميلة التي عاشها في ظل شبيبته: (16) الكامل

أسفي لأيامي بمئزلة اللوى

وزماننا الخالي بذات الخال

أيام نمرح تحت ظل شيبية

مرح الغصون ترف تحت ظلال

ويحن عبد الحق بن عطية إلى أيام شبابه، مصورا جمالها وما عاشه فيها من مرح ولهو وإحساس بالحيوية، فيقول: (17)

البيسط

سقى لعهد شبابٍ ظلت أُمُرُ في

رُيعانه وليالي العيش أسحار

أيام روض الصبا لم تدو أغصنه

ورونق العمر غصن والهوى جار

عهداً كريماً لبسنا فيه أردية

كانت عيانا ومحت فهي آثار

ويظهر جمال الإحساس بالشباب بما فيه من قوة وزهو، وإحساس بالذات وقيمتها واضحا عند تذكر الأوطان والتعبير عن الحنين للأيام التي مضت فيها، وكما يبدو في قول ابن خميس في تلمسان، يحن إليها، ويصور جمال أيام الشباب التي قضاها فيها، فيقول (18): الطويل

وعهدي بها والعمر في عنفوانه

وماء شبابي لا أجين ولا مطح (19)

قرارة تهيام ومغنى صباية

ومعهد أنس لا يلذ به لطخ

إذ الدهر منئي العنان منته

ولا رذع يثني من عاني ولا ردخ (20)

ويتبدى إحساس الشاعر الكبير بأهمية الشباب والقوة التي كان يشعر بها إبانها، حتى أنه يرى نفسه به (الشباب) قد بلغ مبلغ العظام من ذوي الملك والمكانة، فيقول:

كأني فيها أردشير... بن بابك (21)

ولا ملك لي إلا الشيبية والشرخ

وهذا ابن خفاجة يتذكر أيام شبابه، وكيف قضاها بسعادة جامعا فيها بين التصابي والشباب وجمال الطبيعة ومجالس الأنس فيها، فيقول (22) الرمل:

ومض البرق فتار القلق

ومضى النوم وحل الأرق

مُد تذكُرُت لأيام خلّت

ضمنا فيها الحمى والأبرق

وعشبات تقصت بالوى

في محيا الدهر منها رونق

إذ شبابي والتصابي جمعا

ورياض الأنس غصن مورق

ويصور أبو عبد الله الشهير بالتلايسي جمال الأيام التي قضاها وقت شبابه في تلمسان، وكيف كان ينعم بذلك الشباب ويستمتع فيه بالغزل ومجالس الأنس والشراب، فيقول في معرض مدحه لتلمسان (23) الطويل

يَلْهُو فُتْرَعُ لِلشَّبِيبةِ رَايَةً  
فيه وَيَطْلُعُ لِلْبَهَارَةِ كَوَكَبُ  
... في فِتْيَةٍ تَسْرِي فَيَنْصُدِعُ الدَّجَى  
عنها وَتَنْزِلُ بِالْجَدِيبِ فَيَخْصِبُ  
كَرُمُوا فَلَا غَيْثُ السَّمَاحَةِ مُخْلَفُ  
يَوْمًا وَلَا بَرْقُ اللَّطَافَةِ خُلْبُ  
من كُلِّ أَزْهَرٍ لِلتَّعِيمِ بِوَجْهِهِ  
ماءٌ يَرْقُرُهُ الشَّبَابُ فَيَسْكُبُ  
ويَحْنُ لِسَانُ الدِّينِ بن الخطيب لعهد سالف، فيستحضر  
سعادته التي عاشها في ثنَايا تلك الأَيَّامِ، حيث كان مستمتعاً  
بصباه ونضارة شبابه، فيقول (29): الطَّويل  
وَتَصْنُبُو إِلَى عَهْدِ هُنَالِكَ سَالِفِ  
فَتُنْبِذِي مَنِ الشَّوْقِ الْمُبْرِحِ مَا تُبْذِي  
... سنَسْأَلُ عَنْ سُكَّانِهَا نَفْسَ الصَّبَا  
لَعَلَّ نَسِيمَ الرِّيحِ يُخْبِرُ عَنْ هِنْدِ  
إِذِ الْعَيْشُ غَضٌّ وَالشَّبِيبةُ وَارِفُ  
جَنَاهَا وَشَمْلُ الْحَيِّ مُنْتَظِمُ الْعِفْرِ  
ويَحْنُ ابن الأَبَّارِ لَأَيَّامِ صباه ويندب شبابه المُولَى، ويتذكر  
الأَيَّامِ الجميلة التي عاشها فيه، وكيف قضاه بسعادة وحيوية،  
وإحساس بالمتعة واللذة بين أحضان الطبيعة والغواني،  
قائلاً (30): الكامل  
تلك المغاني لَا حُجْبَنَ كَأَهْلِهَا  
عَنِّي فَوَجْدِي سَافِرٌ لَا يُحْجَبُ  
وَلَعَمْرُ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ عُمْرِي بِهَا  
وَجَنَيْتُ مِنْ ثَمَرَاتِ عَيْشٍ يَغْدُبُ  
لَأَغْلِبَنَّ عَلَى السَّلْوِ صَبَابَتِي  
والشَّوْقُ فِي كُلِّ الْمَوَاطِنِ أَغْلَبُ  
وَلَأَنْدَبَنَّ بِهَا الشَّبَابَ وَشَرْخَهُ  
إِنَّ الشَّبَابَ أَحَقُّ فَاِنْ يُنْدَبُ  
سَاحَاتُ حُسْنِ طَرَزَتْ أَوْقَاتُهَا  
سَاعَاتُ أَنْسِ رُدُّهَا مُسْتَصْعَبُ  
ويسترسل الشَّاعِرُ فِي وصف جمال تلك الأَيَّامِ التي خلت  
مستمتعاً بتذكرها، إلى درجة أَنَّهُ تَمَنَّى لو أَنَّهَا تَعُودُ، حتَّى إِنَّ  
القارئ لمشاعره هذه ليلمس استمتاعه بتذكر تلك الأَيَّامِ وكأنَّه ما  
يزال يشعر بها، فيقول:  
هَلْ تُرْجِعُ الأَيَّامُ عَصْرَ شَبِيبةٍ  
ما زِلْتُ فِيهَا بِالْحَسَنِ أَشْبَبُ  
ويشتاق ابن الأَبَّارِ لَأَيَّامِهِ فِي الرِّصَافَةِ، وَأَجْمَلَ مَا كَانَ فِيهَا  
أَنَّهُ قَضَاهَا وَقْتَ شَبَابِهِ، فيقول (31): الكامل

رَبِيعٌ بِهَا كَانَ الشَّبَابُ مُصَاحِبِي  
جَرَرْتُ إِلَى اللَّذَاتِ فِي دَارِهَا الدَّيْلَا  
فَكَمْ نَلْتُ فِيهَا مِنْ أَمَانٍ قَصِيَّةٍ  
وَكَمْ مَنَحَ الدَّهْرُ الضَّنِينَ بِهَا النَّيْلَا  
وَكَمْ غَارِلَتْنِي الْغَيْدُ فِيهَا تَلَاعِبًا  
وَكَمْ مِنْ عَذُولٍ لَا أَطِيعُ لَهُ قَوْلَا  
وَكَمْ لَيْلَةٍ بَتْنَا عَلَى رِغْمِ حَاسِدٍ  
نُذِيرُ كَوْسِ الْوَصْلِ إِذْ بِالصَّفَا ثَمَلَا  
وكديَّةُ عَشَاقٍ لَهَا الْحُسْنُ يَنْتَهِي  
يعود المسنُّ الشَّيْخُ مِنْ حَسَنِهَا طِفْلَا  
وهذا ابن زمرَكٍ يَحْنُ هُوَ الْآخِرُ لِمَرَابِعِ صباه ويتذكر أَيَّامَهُ  
فِيهَا وَيَدْعُو لَهَا بِالسَّقَا، ففِيهَا عَهْدٌ أَجْمَلَ أَيَّامِ شَبَابِهِ وَمَا  
تَضَمَّنَتْهُ مِنْ إِحْسَاسٍ بِالْقُوَّةِ وَتَمَتُّعٍ بِالْغَزْلِ، فيقول (24): الكامل  
دِمْنٌ عَهْدْتُ بِهَا الشَّبِيبةَ وَالْهُوَى  
سَقِيًّا لَهَا وَلِعَهْدِهَا الْمَتَقَدِّمِ  
وكتيبة للشَّوْقِ قَدْ جَهَّزَتْهَا  
أَغْزَوْ بِهَا السَّلَوَانَ غَزْوَ مَصْمَمِ  
ورفعتُ فِيهَا الْقَلْبَ بِنْدًا خَافِقًا  
وَأُرِيْتُ لِلْعَشَاقِ فَضْلَ تَهَمُّمِي  
ويَحْنُ ابن البراء التَّجِيبِي لِمَوْطِنِ شَبَابِهِ، وَيَدْعُو لَهُ بِالسَّقَا،  
مَصُورًا شَوْقَهُ إِلَى أَيَّامِ شَبَابِهِ الَّتِي قَضَاهَا فِيهِ، وَمَبِينًا مَوْقِعَ تِلْكَ  
الأَيَّامِ مِنْ نَفْسِهِ وَإِحْسَاسِهِ بِجَمَالِهَا وَتَمَيُّزِهَا، فَصَوَّرَهَا فِي الْحَسَنِ  
وَالْجَمَالِ بِالْحَدَائِقِ، فيقول (25): الطَّويل  
سَقَى وَاكْفُ الْقَطْرِ الْجَزِيرَةَ إِنَّنِي  
إِلَيْهَا وَإِنْ جَدَّ الْفِرَاقُ لَوَاقِقُ (26)  
دياراً بِهَا فَارَقْتُ عَصْرَ شَبِيبتِي  
فِيَا حَبْدَا عَصْرَ الشَّبَابِ الْمَفَارِقُ  
شَبَابٌ شَفَى نَفْسِي وَوَدَّعَ مَسْرَعًا  
كَمَا زَارَ طَيْفٌ أَوْ تَبَوَّجَ بَارِقُ (27)  
قَضِيْتُ بِهِ حَقَّ الْهُوَى وَأَطَعْتُهُ  
فَأَيَّامَهُ فِي عَيْنِ فِكْرِي حَدَائِقُ  
ويصف ابن خُفَاجَةَ مَجْلِسًا قَضَاهُ وَقْتَ شَبَابِهِ، وَقَدْ زَانَ ذَلِكَ  
الْمَجْلِسَ وَجَمَلَهُ أَنْ اجْتَمَعَتْ فِيهِ كُلُّ الْمَحَاسَنِ الَّتِي تَجْلِبُ لِلنَّفْسِ  
الْبَهْجَةِ وَالرَّاحَةِ، وَأَبْرَزَ تِلْكَ الْمَحَاسِنَ أَنَّهُ كَانَ وَقْتَ الشَّبَابِ  
بِرَفَقَةٍ أَصْحَابُ شَبَابٍ مِثْلَهُ اجْتَمَعُوا مَعَا فِي أَحْضَانِ الطَّبِيعَةِ،  
وفيه يقول (28): الكامل  
سَقِيَا لِيَوْمٍ قَدْ أَنْخَتُ بِسَرْحَةٍ  
رِيًّا تَلَاعِبُهَا الشَّمَالُ فَتَلْعَبُ  
سَكْرَى يُغْنِيهَا الْحَمَامُ فَتَنْتَلِي  
طَرِيًّا وَيَسْقِيهَا الْغَمَامُ فَتَشْرِبُ

ابن الأَبَر في معرض تغزله، إذ يقول<sup>(36)</sup>: مجزوء الكامل  
ومنعم غض القطاف  
عذب الغروب للارتشاف  
... وسقته أندية الشبا  
بِ بمانها حتى أناف  
ومن ذلك أيضا قول النطيلي متغزلا بمحاسن محبوبه<sup>(37)</sup>:  
الكامل  
قد أبرزت خذاه روض محاسن  
عظمت على الأفكار والأوهام  
تتدى بماء شبيبة وتنعم  
فيروق منها الزهر في الأكمام  
وقول ابن خفاجة<sup>(38)</sup>:  
فتق الشباب بوجنتيها وردة  
في فرع إسجلة<sup>(39)</sup> تميذ شبابا  
وكان شرح الشباب من أقوى المحفزات التي توقع في الحب  
وتكون هي المطلب الذي يسعى لنيله، وقد تجلى هذا من قول  
الشاعر<sup>(40)</sup>: الكامل  
ولقد خلوت به أقسم ناظري  
ما بين جؤدر رملة وغصنفر  
يتني معطفه وأذرف عبرتي  
فإخاله غصنا بشاطي جعفر  
وأهاب بي شرح الشباب لربيعة  
فرميت جانبه بعطف أزور  
ومن ذلك قول أبي تمام الحجام<sup>(41)</sup>: البسيط  
أبقى الشباب عليه من غلائله  
ما أثرت فيه من لين غلائله  
وفي ترائيه والحلي يحجبه  
نهد تصور في قلبي حكايته  
ويصور أبو الحسن علي بن حريق الملدات التي يعيشها  
فيذكر منها استمتاعه بالمحبيب واصفا جماله الذي منحه إياه  
ماء الشباب البادي على رقعة وجهه، فيقول<sup>(42)</sup>:  
وما بقيت من اللذات إلا  
محادثه الرجال على الشراب  
ولثمك وجنتي قمر منير  
يجول بخده ماء الشباب  
ولم يكن الشباب بحسنه ونضارته وما فيه من مقومات  
الوقوع في الحب ودواعيه والاستمتاع به فحسب، بل كان الوقت  
المناسب الذي يعطي الرجل المسوغ والدافع الذي يجعله يعيش  
هذه الفترة من حياته مستمتعا بالحب والنساء والشراب وبكل  
ألوان المتع والملذات الأخرى، حتى إنه كان يلمح من بعض

شعده للرصافة سالف  
يصف الشبيبة وهي في ريعانها  
أبقى بقلبي لوعة لو لم يكن  
يسقيه ماء ذاب من نيرانها  
يا شوق أقدافي هفت لحدائق  
تفضي جداولها إلى غدرانها  
ولم يأت تذكر الشعراء الأندلسيين لأيام الشباب والحنين إليها  
في معرض تشوقهم للأوطان وتذكر أيامهم السالفة فيها فحسب،  
بل جاؤوا على ذكرها في معرض قصائدهم التي وصفوا فيها  
تقدمهم في السن وظهور الشيب في مفارقهم، وسنأتي على ذلك  
عند دراسة الأشعار التي قالوها في هذا الباب.  
ومن الموضوعات الأخرى التي عبر فيها الشعراء  
الأندلسيون عن مكانة مرحلة الشباب عندهم، وإحساسهم بما  
فيها من مقومات الجمال والرشاقة والحيوية وكل شيء تهواه  
النفس وتتأمل الحصول عليه موضوع الغزل، حيث كان  
الشعراء يتوسلون بشبابهم لنيل القبول عند الحسان واستمالة  
ودهن، فمن ذلك قول أبي علي الحسن بن شعيب<sup>(32)</sup>: الخفيف  
اتركني حتى أقبل نغرا  
لذ فيه اللمي وطاب الرضاب  
وعجيب أن تهجريني ظلما  
وشفيعي إلى صباك الشباب  
وينحو ابن زيدون هذا المنحى أيضا، فيتوسل بشبابه عند  
من يحب، ويجعله شفيعا له لينال به القبول والوصال،  
فيقول<sup>(33)</sup>: الطويل  
أما علمت أن الشفيع شباب  
فيقصر عن لوم المحب عتاب؟  
علام الصبا غض يرف رواؤه  
إذا عن من وصل الحسان ذهاب؟  
وكان الشباب بحسنه وبهائه من المحاسن التي سبت ابن  
حيان، فعبر عن ذلك بقوله<sup>(34)</sup>: الكامل  
رشا حوى كل المحاسن فاعتدى  
يختال في برد الشباب الضافي  
وقد كان الشباب من أبرز المحاسن التي سبت قلوب  
المحبين فعبروا عن افتتانهم به، ومن ذلك قول ابن  
برد<sup>(35)</sup>: المنسرح  
صب ذكت في فؤاده الحرق  
يغررق في دمه ويحترق  
لده في دجى صبابته  
وجه بماء الشباب مؤتلق  
وكان الشباب بجماله ونضارته من المحاسن التي ذكرها

أشعارهم أنّ مرحلة الشباب يقبل فيها مثل هذه السلوكات مع أنّ بعضها غير مقبول دينياً واجتماعياً، وليس ذلك فحسب بل يُستهجن من الشباب عدم تعاطيها والانغماس فيها، وفي الوقت ذاته نجد -كما سيأتي لاحقاً- أنّها غير مقبولة إذا ما أقدم الكبير في السن على فعل شيء منها؛ حيث يُجلد ويُلَام إذا ما فعلها أو حتى حاول التفكير فيها. فمن الأشعار التي يظهر فيها حث الشباب على ذلك قول الخطيب أبي القاسم محمد بن جزي الكلبي على لسان إحداهنّ تعاتبه وتلومه على هجره النَّصَّابِي وقت شبابه<sup>(43)</sup>: المتقارب

وقائلة لم هجرت النَّصَّابِي

وسنك في عنفوان الشباب

يمرُّ زمان الصِّبا ضائعاً

ولم تله فيه ببيض الكعاب

ولم تدر لذة طيب الهوى

ولم ترو من سلسيل الرضاب

وهذا ابن هانئ الأندلسي يجعل الشباب مطيئة التي يستعين

بها وتطيعه في لهوه وتصابيه حيث يقول<sup>(44)</sup>: الطويل

وأتبع لهوي خالعاً ويَطْبِغُنِي

شباب رطيب غصنه وجنى يُعْ

وهذا أبو بكر عبادة بن ماء السماء يرى أن الصِّبا والشباب

يمثلان الوقت المناسب لاغتنامهما في الاستمتاع بالملذات

والمتع من لهو وشراب، ويرى إن فات الشباب دون ذلك فالندم

هو العاقبة، فيقول<sup>(45)</sup>: الكامل

اجل المدامة فهي خير عروس

تجلو كروب النفس بالنفيس

واستغنم اللذات في عهد الصِّبا

وأوانه لا عطر بعد عروس

ومن الموضوعات الأخرى التي حملت معاني إيجابية

وجميلة عن مرحلة الشباب موضوع المديح، حيث ارتبط

الشباب فيه بمعاني القوة والنضارة والإشراق والتجديد، ومن ذلك

مدح ابن دراج سليمان بن الحكم المستعين، يصف ما كان

على أيامه من نعم ردت الشباب إلى الكبار، وذلك بعد أن

كانت الأيام قبله قد أشابت الوليد فيقول<sup>(46)</sup>: الكامل

وصفت لنا الدنيا فشبت كبيرها

في إثر ما قد كان شاب وليد

ولقد تكرر هذا المعنى في قول لسان الدين بن الخطيب في

مدح الداخل، حيث أشار إلى أنّ حكمه قد أعاد إلى الأيام

شبابها، فيقول<sup>(47)</sup>:

فأقبل السعد وجاء النصر

وأشرق الأمن وضاءت القصر

وعادت الأيام في شباب

وأصبح العدو في تباب

سطي وأعطى وتغاضى ووفى

وكلما أقدره الله عفا

ويمدح ابن مالك القرطبي يوسف هود: <sup>(48)</sup> البسيط

شرخ الشباب أمن روح وريحان

عصراك أم جوهر في الوهم روحاني

ويمدح أبو الحسن البكري المعتمد بن عباد، مثنيا على

حسن إكرامه له، فكان اليوم الذي أمضاه عنده في جماله

وحسنه كريهان الشباب حقيقة لا وهما، فيقول<sup>(49)</sup>: الطويل

ويوم كريهان الشباب شهدتته

يقيناً ولم يطمح إليه التوهّم

فما خلت أن البحر يحويه مجلس

ولا يحتوي وسط الندي يللم

ومن ذلك أيضاً مدح ابن خفاجة للأستاذ محمد

البطلوسي<sup>(50)</sup>: الطويل

وتأخذ عنه صنعة السحر بابل

وتلوي إليه عطفة الصب بغدان

وجدت به ريح الشباب لدونة

ودون صبا ريح الشبيبة أزمان

ولم تكن كل الأشعار التي تحدثت فيها الشعراء الأندلسيون

عن الشباب إيجابية في نظرتها لهذه المرحلة، وإنما هناك

أشعار تناولت ما فيها من جوانب سلبية، لا سيما فيما يتصل

بجانب استثمارها في المتع والملذات، الأمر الذي يجعل من

سمات هذه المرحلة الخفة والتزق والطيش واتِّباع الهوى، وقد

جاء هذا واضحاً في أشعارهم<sup>(51)</sup> التي وصفوا فيها مرحلة

الشيب وأثره فيهم سلباً وإيجاباً، ولقد أشار إلى هذا الجانب

السلبى لمرحلة الشباب ابن خفاجة نثراً في فصل من إحدى

رسائله فقال<sup>(52)</sup>: "ألا إنّما الدنيا دار كون وفساد، وسوق نفاق

وكساد، والعمر بالإنسان مضطرب، والمرء موج مع الأيام

منقلب، وإن للشبيبة صبوة، وللحادثة هفوة، وقصارى الطيش

ركانة ووقار، وأول قرّح الخيل المعار، ولم أر كالشباب مطية

للجهل"، وستتجلى هذه الصورة للشباب في معرض دراستنا

للأشعار التي وصف الشعراء الأندلسيون فيه مرحلة الشيب؛

حيث كثرت فيها المقارنة بين هاتين المرحلتين، وما في كلتيهما

من جوانب إيجابية وسلبية.

#### مرحلة الشيب:

إنّ مرحلة الكبر مرحلة حتمية لا بدّ أن يصل إليها الإنسان

-إن لم يقض الله تعالى بموته قبلها- ولا يكاد ينكرها أحد أو

يماري فيها، فهذا لسان الدين بن الخطيب يشير إلى هذا بقوله<sup>(53)</sup>: الكامل

العمرُ نَوْمٌ والمُنَى أحلامُ

ماذا عسى أن يستمرَّ مقامُ

وإذا تحقّقنا لشيءٍ بَدَأَةً

فله بما تُقْضي العقولُ تمامُ

... بعدُ المشيبةُ كِبَرَةٌ ووراءها

هَرَمٌ ومن بعدِ الحياةِ حِمَامُ

ولهذه المرحلة آثار سلبية من الناحية الجسميّة والنفسية حتميّة هي الأخرى؛ لأنّها تمثل انتقالاً واضحاً في حياة الإنسان من مرحلة جميلة - كما تبتينا سابقاً - عاش فيها الإنسان القوة، والنشاط، والحيويّة، والعطاء، إلى مرحلة أخرى تكاد تكون مناقضة تماماً للمرحلة السابقة (الشباب)، حيث يعاني فيها الإنسان من "ضعف وانهايار في الجسم واضطراب في الوظائف العقلية" ويصبح الفرد أقل كفاءة وليس له دور محدد ومنسحب اجتماعياً وسيء التوافق ومنخفض الدافعية وغير ذلك من التغيّرات<sup>(54)</sup> ولقد دارت مضامين الأشعار التي وصف فيها الشعراء الأندلسيون مرحلة الشيب والكبر في شعرهم حول مجموعة من المحاور، هي:

- تصوير الأثر النفسي والجسمي لظهور الشيب والتقدّم في العمر والشكوى منه.
- تصوير موقف المرأة من الشيب.
- التوبة والإنابة والرجوع إلى الله تعالى.

#### أولاً: تصوير الأثر النفسي والجسمي لظهور الشيب والتقدّم في العمر

لم يكن ظهور الشيب في الرأس وما يرافقه من علامات التقدّم في السن أمراً هيناً على النفس البشريّة، وإنما نجدها تجزع منه وتنفر من تقبله، وتشعر بالألم النفسي الكبير منه، ولقد عكست أشعار الأندلسيين التي نظموها في هذا الموضوع هذه المشاعر بصورة جليّة، حيث وصفوا فيها دخولهم هذه المرحلة من مراحل حياتهم، وما أحدثته فيهم من ألم نفسي، وضعف جسمي، جعلهم يشكون منه، ويتحسّرون على أيامهم الماضية، وقت كانوا شباباً في ربيع العمر وغضارته. ومن الأشعار التي تعبّر عن وقع الشيب وأثره النفسي الكبير فيهم قول ابن حمديس يشكو ألمه من ظهور الشيب، ويصف حلوله في رأسه بالمصيبة التي حلّت به، ويعبّر عن مفارقة شبابيه بالفقد، ولهذا التعبير دلالة كبيرة على صعوبة الإحساس الذي يشعر به؛ فالفقد لا يكون إلا للشيء العزيز الغالي على النفس<sup>(55)</sup>: الطويل

ولم أرَ كالدنيا خووناً لصاحبٍ

ولا كمصابي بالشبابِ مُصابا

فقدتُ الصبّا فابيضّ مسودّ لمتي

كأنّ الصبّا للشيبِ كان خضابا

وهذا أبو محمّد عبد الغني بن طاهر تمنّى لو أنّه عمي قبل

رويته الشيب حالاً في رأسه، ويصف بعض السليبيات المرافقة

له، كالصعوبات البدنية، وتغيّر معاملة الناس له بعد أن كبر،

فيقول<sup>(56)</sup>: الطويل

تبسمُ شيبِي في عذارِي مُنكَباً

فقلتُ له يا ليت طرفِي قد عمي

فقالَ عجيبٌ بَعْضُ من لَاحِ طالعا

كصُبْحٍ ولم يُظْهرْ خلافَ التَّبَسُّمِ

ولم يدِرْ أنّ الليلَ والويلَ طَيِّهٌ

وهل هوَ إلا مثلُ رَقْمٍ بأرقمِ

تراني أهواهُ وقد صارَ مَنْ به

أهيمُ إذا مرَّ بي لم يُسلمِ

وهذا ابن سلبطور يعدّ الشيب نائبة من نوائب الدهر التي لا

بدء من وقوعها، حيث يقول<sup>(57)</sup>: الرجز

وفي ضَمَانِ ما يُعاني المرءُ مِنْ

نوائبِ الدهرِ مشيبُ المَفْزَقِ

ويعبّر لسان الدين بن الخطيب عن تألمه وحزنه لمفارقة

الشباب، ويتهم الزّمن بسرقة منه وإبداله الشيب مكانه، الأمر

الذي سبب له الكمد والحزن، فيقول<sup>(58)</sup>: الرّمل

سرقَ الدهرُ شِبابِي مِنْ يَدِي

فقدّادي مُشعِراً بالكمدِ

ويصوّر أبو القاسم محمّد بن الحكيم اللخمي ألمه من حلول

الشيب مفارقة، ويعبّر عن غضبه وعدم رضاه عن ذلك، ويتمنّى

اختفاءه، كما يصفه بالسارق الذي سرق شبابه ويطلب بإقامة

الحَدّ عليه، فيقول<sup>(59)</sup>: الكامل

لَيْلُ الشَّبَابِ انْجَابَ أَوَّلَ وَهْلَةٍ

عَنْ صُبْحِ شَيْبٍ لَسْتُ عَنْهُ بِرَاضٍ

إِنْ سَرَنِي يَوْماً سِوَا خِضَابِهِ

فأنصولة عن ساق ببياض

هلا اُخْتَفَى فهو الذي سَرَقَ الصَّبَا

والقَطْعُ في السَّرَقَاتِ أمر ماضٍ

فعليه ما استطاع الظهور بلمتي

وعليّ أن ألقاه بالمقراض

ويضيق موسى بن محمّد ذرعاً بالشيب، ويصوّره بالضيف

النّقيّل، ويعدّه بالجفاء وسوء الاستضافة له، فيحرّم عليه أن ينال

عنده طيّباً، فيقول<sup>(60)</sup>: الطويل

أقول لضَيْبِ الشَّيْبِ إذْ حَلَّ مَفْرَقِي:

نصيبك مَنِّي جَفْوَةً وَقُطُوبُ

حرامٌ علينا أَنْ تَتَالَكَ عِنْدَنَا

كرامةٌ بَرٌّ أَوْ يَمْسُكَ طَيْبُ

ولا يجد ابن هانئ الأندلسي مثل وجده وفجيئته بحلول

الشَّيْبِ رأسه وزوال شبابه، فيصوّر حزنه على مفارقة شبابه

وتألمه قائلاً: (61) البسيط

لا مثلَ وَجْدِي بَرِيْعَانِ الشَّبَابِ وَقَدْ

رَأَيْتُ أُمْلُودَ غُصْنِي غَيْرَ أُمْلُودِ (62)

والشَّيْبُ يَضْرِبُ فِي فُؤْدِي بَارِقَةً

والدَّهْرُ يَفْدَحُ فِي شَمْلِي بِنَبْدِيدِ

ورابني لَوْنُ رَأْسِي إِنَّهُ اخْتَلَفْتُ

فيه الغمائم من بياض ومن سَوْدِ

ويصوّر ابن السراج المالقي حزنه على مفارقة أيام شبابه،

ولا يستقل أن يمضي عمره باكياً عليها، فيقول: (63) الطويل

فإن أَبْكَ أَيْامَ الشَّبَابِ فَوَاجِبٌ

على مَنْ جَفَنَهُ أَنْ يُرَى الدَّهْرُ بَاكِياً

ويصف ابن خميس تكدر صفو حياته بعد المشيب وزوال

الشَّبَابِ، فلم يعد يهنأ بطعام ولا شراب فيقول: (64) الطويل

وهيهات من بَعْدِ الشَّبَابِ وَشَرْخِهِ

يَلْدُ طَعَامِي أَوْ يَسُوعُ شَرَابِي

ويتألم أبو إسحاق الخفاجي من حاله بعد الكبر وكيف

تبدلت بعد أن بلغ الستين، ممّا جعله يبكي حزناً عليها متمنياً

رجوع شبابه، شاكياً للحمام حاله ووجده قائلاً: (65) الوافر

ألا ساجِلُ دُمُوعِي يَا غَمَامُ

وطارِحُنِي بِشَجْوِكَ يَا حَمَامُ

فقد وَفَيْتُهَا سِتِّينَ حَوْلًا

ونادتنِي ورَائِي هَلْ أَمَامُ

وكنْتُ ومن لُبَانَاتِي لُنَيْنِي

هناكَ ومن مَرَاضِعِي المَدَامُ

..فيا شَرَّ الشَّبَابِ أَلَا لِقَاءَ

يُبُلُّ بِهِ على بَرْحِ أَوَامُ

ويا ظِلَّ الشَّبَابِ وكنْتُ تَنْدَى

على أَفْيَاءِ سُرْحَتِكَ السَّلَامُ

ولقد كثرت في أشعارهم في هذا الإطار المقارنة بين أيام

الشَّبَابِ والمَشْيِبِ، حيث عبّروا من خلالها عن تحسّرهم وتألمهم

على مفارقة الشَّبَابِ، وصوّروا ضيقهم وضجرهم من المشيب

وما فيه من متاعب نفسية، وجسمية، وحزنهم على أشياء كثيرة

فارقوها بحلول المشيب تولّت عنهم دون رجعة، فمن الأمثلة

على هذا قول أبي علي ابن السراج المالكي يحنّ لأيّام شبابه

الخوالي متذكّراً ما كان فيها من محاسن ومتع، ويصوّر كيف

تبدّلت حاله بعد أن حلّ المشيب بمفرقه، فلم تعد أيّامه كما

كانت أيّام شبابه: (66) الطويل

وللّه أَيّامِي وَمَا جِلْتُ أَنّهَا

تُعَوِّضُنِي مِنْ قُرْبِهَا فِي الرِّضَى نَائِيَا

تَوَلَّتْ حَمِيدَاتٍ فَسَقِيّاً لِعَهْدِهَا

وَرَعِيّاً وَلَا سَقِيّاً لِهَٰذِي وَلَا رَعِيّاً

جَفَنَتِي عَيُونُ الْغَانِيَاتِ وَطَالَمَا

سَعَتُ طَوْلَ أَيّامِي لِتَبْصُرَنِي سَعِيّاً

وأطلع شبيبي عارضاً فَوْقَ عَارِضِي

يَسِخُ هُمُوماً عَلَيَّ لَهَا بُقِيّاً

مَضَى عُمُرِي والدَّهْرُ لِي غَيْرُ مَنْصِفٍ

يَكْفِنِي أَشْيَاءَ جَلَّتْ عَنِ الْأَشْيَا

ويشترك حسّان بن المصيصي مع ابن السراج المالكي في

الآبيات السابقة في شكواه من تبدّل الحال عليه بعد المشيب،

وهجر النساء له فيقول: (67) الكامل

رَوْضُ الشَّبَابِ تَتَاوَيْتُ أَزْهَارُهُ

وَلَى بِنَفْسِجُهُ وَجَاءَ بِهِارُهُ

وَدَّ الْمَهَا لَوْ أَنَّ أَسْوَدَ لَحْظِهِ

أَضْحَى خَضَاباً حِينَ شَابَ عِذَارُهُ

قَدْ كَانَ يَعْجِبُهُنَّ خَفَّةَ جِلْمِهِ

فَالآنَ سَاءَ الْغَانِيَاتِ وَقَارُهُ

تَرَكَ الَّذِي اشْتَمَلَ الْكَثِيبَ إِزَارُهُ

منه الذي اشْتَمَلَ الْعَفَافُ إِزَارُهُ

ويتحسّر ابن رشيّق القيرواني على أيّام شبابه ومفارقته لها،

فيشير إلى أنّ وقت الشَّبَابِ كان يُعْزِي به ويغريه؛ فهو الوقت

المناسب لأن يَعْشُقَ وَيُعْشَقَ، ولكنّ المشيب بدّل الأمر عليه،

وجعله يودّع تلك المتع والمذات؛ فلم يعد الوقت مناسباً لها،

فيقول: (68) البسيط

حَسْبِي وَحَسْبُكَ مِنْ لَوْمٍ وَتَثْرِيْبِ

بأن الذي كان يُغْزِيْنِي وَيُغْزِي بِي

أَمَّا الشَّبَابُ فَقَدْ وَدَّعْتُ لَدَتَهُ

إِلَّا أَبَاطِيلَ أَحْلَامٍ وَتَشْيِيْبِ

ويواصل تحسّره على فوات أيّام الشَّبَابِ التي قضاها في

اللهو والتّصاّبِي، حيث الخمر والنّساء والجمال، ويشير إلى عدم

قدرته على الاستمتاع بها وقت المشيب، فيقول:

قَرَعْتُ سَيِّئِي عَلَى مَا فَاتَنِي نَدْمًا

من الشَّبَابِ وَمَنْ بِاللّٰهُو لِلشَّيْبِ

فقد رَدَدْتُ كُؤُوسَ اللّٰهُو مُثْرَعَةً

على السَّقَاةِ وَكَانَتْ جُلُ مَشْرُوبِي

وهذا ملك بلنسية مروان بن عبد العزيز على يقين هو  
الآخر بأن الشيب نذير بانهدام الجسم، واقترب الأجل، إذ  
يقول: (73) الطويل  
ولما رأيت الشيب أيقنت أنه

نذير لجسمي بانهدام بنائه  
إذا ابيضَ مُخْضِرُ النَّبَاتِ فَإِنَّهُ  
دليل على استحصاده وفنائه  
وتبدو صعوبة الإحساس بدنو الأجل، وترقب الإنسان له  
بعد بلوغ الكبر جلية في قول أبي بكر بن منخل: (74) مجزوء  
الرمْل  
مَصَّتْ لِي سِتَّ بَعْدَ سَبْعِينَ حَجَّةً  
ولي حركات بعدها وسكون  
فيا ليت شعري أين أو كيف أو متى

يكون الذي لا بد أن سيكون  
وهذا ابن حيان من شدة ما يعانيه في مرحلة الكبر من  
حزن وألم، وما لقيه من الأيام والناس يستعجل الموت؛ إذ إنه  
من شدة ما يعاني صار كالميت، فيقول: (75) مجزوء الرمل  
أَيَّ عَيْشٍ لَشَيْخٍ هُوَ حَيٍّ مِثْلُ مَيِّتٍ  
عَادِمُ الْأَنْسِ غَرِيبٌ مُفْرَدٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ  
وله نفس تتادي للمنايا هيئت هيئت  
ولم يأت الإحساس بدنو الأجل واقترب النهاية من فراغ، أو  
لمجرد ظهور الشيب في الرأس أو اللحية، أو حتى لمجرد التقدّم  
في السنّ، وإنما كان لما يرافق ذلك كله من تغيير في قوى الجسم  
العضوية، وما يترتب على ذلك من صعوبة في الحركة، وضعف  
الحواس، والانعزال عن الناس من حولهم، وبعد الأصدقاء، وغير  
ذلك من الصعوبات التي أشرنا لها فيما سبق، ولقد بدت كل هذه  
الصعوبات والمتاعب واضحة جلية في الأشعار الأندلسية التي  
وصف قائلوها هذه المرحلة من مراحل العمر بمرارة وأسى، ومن  
هذه الأشعار قول أبي مروان الحجاري يصف نفسه بعد أن سلب  
منه شبابه، وأصبح من شدة ضعفه ملازما فراشه ثاويا فيه  
كالخيال، لا يدلّ عليه إلا صوت أنينه: (76) المنسرح  
قد استردّ الشَّبَابُ خِلْعَتَهُ

ونبّهتني الخطوب من سينة  
لولا أنيني على فراشي لم  
يبدُ خيالي لعين ملتفت  
ولو أنتني المنون تطلبني

ما علمت موضعي ولا رأيت  
ويصوّر ابن خفاجة شدة ألمه بعد مفارقة شبابه، وبيكي  
حاله وقد رُدَّ من بعد القوة إلى الضعف، وخانه السمع والبصر،  
مما ولد في قلبه الحسرة، فاشتكى من ذلك بقوله: (77) الطويل

أَنْزَهُ السَّمْعَ وَالْعَيْنَيْنِ فِي نَعَمٍ  
وَمُنْظَرٍ غَايَةٍ بِالْحَسَنِ وَالطَّيِّبِ  
أيام تصحبني الغزلان أنسة  
هذا على أنني أعدى من الذيب  
وهذا ابن خفاجة يصوّر حاله بعد المشيب وكيف فارق به  
تلك الأيام الجميلة التي عاشها وقت شبابه، فيقول: (69) الطويل  
ألا إنها سنٌ تزيد فأنقص  
ونفضة حمى تعتريني فأزقص  
... ألا بأن عيش كان يندى غصارة  
فياليت ذاك العيش لو كان ينقص  
وعز شباب كان قد هان برهة  
ألا إنها الأعلاق تغلو وترخص  
فمن مبلغ تلك الليالي تحبة

نعم بها طورا وطورا تُخصص  
ومما يزيد في نفسية الكبير في السنّ ألما وحسرة في مرحلة  
المشيب ما يعانيه من ضعف في بنيته الجسمية، وتراجع قوته  
ونشاطه، وعجزه عن القيام بما كان يقوم به وقت شبابه هذا من  
جهة، ومن جهة ثانية فإنه يترتب على هذا الضعف إحساس  
سلبي آخر يتمثل بالخوف من الموت والإحساس بدنو الأجل؛  
الأمر الذي يزيد من إحساسه بالألم والشكوى المريرة؛ ذلك لأنه  
يشعر بأنه على موعد مع الموت في أي لحظة، فهذا مثلا ابن  
ورد بعد أن بلغ الثمانين وجد أن الرحيل قد حان وقته،  
فيقول: (70) السريع  
عَشْرُ الثَّمَانِينَ وَعُمُرٌ طَوِيلٌ

لم يبق للصحة إلا القليل  
لا تحسبوني ثاويا فيكم  
فقد دنا الموت وأن الرحيل  
ويرى مسلم بن قزمان أن ذهاب شبابه مؤذن بقرب حتفه،  
وأن مفارقة الأحبة ووداعهم قد حان وقته، فيقول: (71) البسيط  
ولّى شبابي ولم أعلم بكرّته  
فالآن قد صرْتُ من حثفي على وجَلٍ  
كأنه قادم وافي أحبته

يبغي بتسليمه توديع مرتحل  
وهذا أبو عمران موسى المارتلي على يقين بأن أجله قد دنا  
وبات من نعشه على مقربة، وذلك بعد أن تجاوز السبعين من  
عمره: (72) المتقارب

أمن بعد سبعين أرجو البقا  
وسبع أتت بعدها تعجل  
كان بي وشيكا إلى مصرعي  
يساق بنعشي ولا أمهل

فأه طويلاً ثم آه لكبرة

بكيتُ على عهد الشباب بها دما

وقد صدئت مرأة طرفي ومسمعي

فما أجدُ الأشياء كالعهد فيهما

وهل ثقة في الأرض يحفظ خلة

إن غدرا بي: صاحبان هما هما

ويشكو مالك بن عبد الرحمن من ضعف قواه، وخيانة

أعضائه له بعد أن بلغ الثمانين، قائلا: (78) الكامل

يا من لشيخ قد أسن وقد عفا

مذ جاوز السبعين أضحي مُدْناً

خائنه بعد وفائها أعضاؤه

فغدا قعيدا لا يطيقُ تصرفاً

ويرى ابن خفاجة أنه لا قيمة للعيش بعد أن يفقد الإنسان

قوته، ويتخلص ظهره، ويصبح عاجزاً عن فعل ما كان يفعله

أيام صباه، فيقول (79): الرمل

أي عيش أو غداء أو سِنَّة

لا بن إحدى وثمانين سنّة

قلص الشيبُ به ظلّ امرئ

طالما جرّ صباه رسنّة

تارة تسطو به سِنَّة

تُسَخِّن العينَ وأخرى حَسَنَة

ويصور ابن لبّال حاله وقد كبر وضعفت قوته وانحى

ظهره، حتى غدا وكأنه قوس بلا وتر، فيقول (80): البسيط

لما تقوس مئي الجسم عن كبر

فابيض ما كان مسوداً من الشعر

جعلتُ أمشي كأنّي نصفُ دائرة

تمشي على الأرض أو قوس من بلا وتر

ويكرر المعنى ذاته في مقطوعة أخرى، غير أنه بدا فيها

مستعينا بالعصا، فيقول: (81) المنسرح

قوس ظهري المشيب والكبر

والدهر يا عمرو كله عير

كأنني والعصا تدبّ معي

قوس لها وهي في يدي وتر

ويشتكي أبو عامر ابن عقّال من ضعف المفاصل، وعدم

القدرة على التركيز الذهني، فيقول: (82) مجزوء الكامل

فإذا انقضى زمن الصبا

ورمي المشيب فأنفذا

وجد السقام إلى المفا

ويقول مهما يُعط شي

ويحتسّر حبيب بن أحمد الشطّجيري على حاله وقد كان ذا

قوة في صباه تبدلت بعد الكبر، إذ أصبح غير قادر على

النهوض، فيقول (83): السريع

الحمد لله على ما قضى

فكل ما يقضي فيه الرضا

قد كنتُ ذا أيدٍ وذا قوة

فاللوم لا أطيعُ أن أنهضاً

إن الشيب والكبر لا يفرقان بين الرجال أو النساء، فكما

اشتكى الرجال من صعوبة المشي وما ألم بهم وقت المشيب

من متاعب نجد أيضاً الشاعرة مريم بنت أبي يعقوب الأنصاري

قد اشتكت هي الأخرى ممّا أصابها وقت الكبر من صعوبة في

الحركة وما ألم بها من تعب جعلها كالطفل الذي كلما مشى

تعثر، وكالأسير المكبل، فتصف حالها تلك بقولها: (84) الطويل

وما ترتجي من بنت سبعين حجة

وسبع كنسج العنكبوت المهلهل

تدبّ دبيب الطفل تسعى إلى العصا

وتمشي بها مشي الأسير المكبل

أما الشكوى من ضعف القوة الذهنية وعدم القدرة على

الحفظ كما هو الحال وقت الشباب فقد ظهرت في قول الحسن

بن علي بن الجيّاب (85): مخّلع البسيط

لله عصرُ الشبابِ عصراً

حفظتُ ما شئتُ فيه حفظاً

حتى إذا ما المشيبُ وافي

لا تنعوا بعدها بحفظ

ومن الصّعوبات التي اشتكى منها الشعراء الأندلسيون في

كبرهم القعود عن العمل، والشعور بأنهم أضحو عالة لا

يستطيعون العمل وإعالة أنفسهم وأهلهم كما كانوا أيام شبابهم،

الأمر الذي أبعد الأهل عنهم وساعد على هجرهم لهم، ومن

ذلك قول أبي جعفر الشاطبي: (86) الطويل

عدتُ بك عن نيل المعيشة كبرة

تراختُ لها الأعضاء واستنثّرتُ الخير

وقلّ انتفاعُ الأهل منك فأعرضوا

كأنك فرخٌ ملّ من رقة الطير

وقد كان لجفاء الأصدقاء وبُعدهم عن الكبير في السن أثره

في نفسيته، وهذا ما اشتكى منه الشعراء الأندلسيون، وبدا

تألمهم منه واضحاً، فمن ذلك قول ابن اللبانة الداني، يشكو فيه

من جفاء إخوانه وقت المشيب، الأمر الذي زاد مرارة ألمه من

هذه المرحلة: (87) الكامل

زمن المشيبِ زمّانة ولربّما

زادتكَ فيه خيانة الإخوان

زادوا جفاءً فانقصت مودة

ومن الزيادة مُوجبُ النقصان

ومن الشَّيء ذاته اشتكى أبو الحسن علي بن عمر الكناني  
في معرض تحسره على أيام الشباب وما حلَّ به وقت المشيب،  
فيقول: (88) الكامل

والعمر مثل البدر يونق حسنه

حيناً ويُعقب بعد ذاك سراره

ما للإخاء تقلصت أفيأوه

ما للصقاة تكدرت أثاره

### ثانياً: تصوير موقف المرأة من الشيب

لم يأت حديث الشعراء عن المرأة في موضوع الشباب  
والشيب محصوراً في زاوية واحدة، أو فكرة واحدة، وإنما كانت  
المرأة حاضرة في هذا الموضوع في أكثر المعاني التي عبّروا  
عنها، فوجدناها حاضرة في معرض تصويرهم لجمال أيام  
الشباب وحنينهم إلى المتع التي عاشوها فيه، كما ظهرت عند  
تصويرهم الإحساس بالألم وقت كبرهم وحلول الشيب مفارقهم،  
فكانت من الأشياء الجميلة التي فارقتهم مع الشباب؛ إذ لم يعد  
بإمكانهم كما ذكروا الاستمتاع بها، ولم يقف حضورها في هذا  
الموضوع عند هذه المعاني فحسب، بل عبّروا عن استمرار  
حاجتهم إليها حتّى بعد أن كبروا وشابوا، فعرضوا لموقفها وردّة  
فعلها تجاه مشاعرهم وهم في هذه المرحلة العمرية.

عبّرت الأشعار التي نظمها الأندلسيون في مرحلة الكبر  
والمشيب عن استمرار إحساسهم بالمرأة وانجذابهم لها على  
كبرهم وضعف قواهم، ولا يرى علماء النفس غرابة في هذا  
الأمر؛ ذلك لأنّ "الشيوخوخة وإن كانت في كثير من الأحيان  
تفتقر إلى الحيوية الجنسية، فإنّها لا تفتقر بحال خصوبة  
العاطفة" (89)، ولكن إحساسهم بالحاجة العاطفية تجاه المرأة وهم  
في هذه المرحلة من العمر شيء وتقيل المرأة والمجتمع له  
شيء آخر؛ إذ يواجه -في كثير من الأحيان- بالصدود من  
قبل المرأة، وبالرفض والإنكار واللوم من قبل المجتمع. فهذا أبو  
عمرو بن غياث يعلن وقوعه في الحب بعد الكبر، ويعترف بأن  
وقت الصبا هو الوقت المناسب لهذه المشاعر، ولكنه مع ذلك  
لا يجد أن في ذلك عارا عليه، فيقول: (90) الطويل

صبوْتُ وهل عارٌ على الحرِّ إن صبا

وقيدَ بعشر الأربعين إلى الصبا

ويواجه الشاعر اللوم على تصابيه فيذكر بمشيبه، غير أنه  
يرد علي من يولمه منكراً أن يكون شبيه علامة كبر أو ضعف،  
وإنما يعلل ذلك بشجاعته وقوّته وقت صباه هي التي غيرت  
لون رأسه، فيقول: (91)

وقالوا مشيبٌ قلتُ وأعجبا لكم

أيُنكرُ بدرٌ قد تجلَّلَ غيها

وليس بشيبٍ ما ترون وإنما

كُميتُ الصبا مما جرى عادٍ أشهباً

وهذا أبو محمّد البطليوسي لم يمنعه الشيب من الافتتان

بالحسن والجمال، حيث صبا وعاد لأيام صباه مأخوذاً بالحسن

والجمال: (92) الطويل

خَليليّ ما للريح أضحى نسيما

يذكرني ما قد مضى ونسيْتُ

أبعدَ نذيرِ الشيبِ إذ حلَّ عارضي

صَبوتُ بأحداقِ المَها سُبُيتُ

ولي سَكَنٌ أغرى بي الحزنَ حُسْنُهُ

جريءٌ على قتلِ المُحبِّ مُقيتُ

وهذا ابن الأبار يلاقي اللوم على تشبيهه وقد شاب فيشتكي

من ذلك: (93) الكامل

عذلوهُ في تشبيهه ونسيبه

من ذا يُطبقُ تناسيا لحبيبه

ومضوا على تأنيبه وبحسبهم

تأنيبه محياه في تأنيبه

ويحاول أن يلتمس لنفسه العذر لوقوعه في الحبّ كبيراً،

فيعلل ذلك بحسن من جعلته يقع في هواها فيقول:

من شارفَ الخمسين ضيقُ عُدْرُهُ

تعدّاهُ في الشيبِ عن تشبيهه

لكنّها حدّقُ المَها خَبأتَ له

من سحرها ما جدّ في تحبيبه

ويصور ابن حيّان وقوعه في الحبّ كبيراً، الأمر الذي جعله

يرتدّ لأيام الشباب، ذلك الوقت المناسب لكل المتع والملاذات

التي يصبو الإنسان إلى تحقيقها والتّمتع بها فيقول: (94) البسيط

يا صَبوَةٌ قد أتتني آخرَ العُمُرِ

تذكّرُ القلبَ ما قد كانَ في الصُغُرِ

إنّي كلفتُ بريمٍ قد تقنّصني

أشراكُ مقلته ..... (95)

أباح لي قُطْفَ وردٍ يانعٍ نضُرٍ

ورشَفَ شهدٍ شهيّ عاطرٍ خَضِرٍ

لقد كانت المرأة -كما أسلفنا- من أجمل الذكريات والأشياء

التي عبّرت عنها الأشعار التي قيلت في وصف الشباب

ومحاسنه، ولم يتأثر الكبير في السنّ بجمالها، ويشعر بحاجته

إليها وقت شبّه فحسب، بل ظلت حاضرة عنده، فكانت على

كبره مطلباً يسعى للوصول إليه، ولكن المرأة نفسها تتغيّر

نظرتها للرجل بعد شبّه، فتصبح بعد أن كانت مقبلة عليه شاباً

نافرة عنه، مبغضة له إذا ما بدا الشيب يغرّو رأسه، وموقفها

هذا غير خاف على الرجال، فهم بهذه يدركون هذه الحقيقة

حتى لو حاولت المرأة إخفاءها، فهذا يحيى بن الحكم الغزال يصرح بذلك ولا يقبل من المرأة خداعه بقول أحبك بعد أن أصبح شيخا كبيرا في السن، فيرد عليها بأنه يعرف أن الشيخ لا يحبه أحد، فيقول: (96) الكامل

قالتُ أُحِبُّكَ قلتُ كاذبة  
هذا كلامٌ لستُ أقبله  
سَيَانُ قولكُ ذا وقولكُ إن  
أو أن تقولي النارُ باردةٌ  
غَزِي بذا مَنْ ليس ينتقدُ  
الشيخُ ليس يحبه أحدُ  
الريحُ نعقدها فتتعقدُ  
أو أن تقولي الماءُ ينفدُ

وتصرح إحداهن بأن المرأة لا تحب الكبير وتبغضه حتى وإن أوتي من المال ما أوتي، فهي تفضل الصغير وإن كان فقيرا؛ فالمال آت ولكن الشباب غير عائد إذا ما تولى: (97) الوافر وخيرها أبوها بين شيخ

كثير المال أو حدث فقير

فقلت: خطئا خسف وما إن

أرى من حظوة للمستخير

ولكن إن عزمت فكل شيء

أحب إلي من وجه الكبير

لأن المرء بعد الفقد يثرى

وهذا لا يعود إلى صغير

وتبدو ردة فعل المرأة تجاه شيب الرجل وتقدمه في السن واضحة من مجرد رؤيتها له بعد أن تبدو عليه علامات الكبر، فهي بمجرد أن ترى الشيب قد بدا بالظهور ترتاع، وتتفر منه، ولا يعجبها ذلك فتجهر له بموقفها، معلنة عنه دون حرج، أو مراعاة لنفسيتها، ومن الأمثلة على ذلك قول أبي العباس أحمد بن قاسم: (98) الكامل

قالتُ وقد نظرتُ فروعها

شيبٌ على فودي مُنتشرٌ

ما شأنُ تلكَ البيض، قلتُ لها

ماتَ الشبابُ فبيضَ الشعرُ

وهذه أخرى تصرم الرجل بعد أن لاح الشيب في رأسه، وفي ذلك يقول أبو عبد الله الرندي: (99) الرمل

صارمته إذ رأت عارضه

عادَ من بعدِ المشيبِ أشيبا

ويصف الخطيب العدل علي بن أحمد أبو الحسن الأحمير موقف المرأة من الرجل بعد الشيب، وكيف أنها ترتاع من شيبه، فتقرر هجره، فيقول: (100) الكامل

الآنَ تطلبُ ودَّها ووصلها

من بعدِما شعلتُ بهجركَ بالها

وقد استحالتُ فيكَ سيماءَ الصبا

حلاً يروغُ مثلها أمثالها

وأنتيتها متلبساً بروائع

نُكِرَ بفودكُ أصبحت عذالها

وتبدو صورة الشيب قبيحة منفرة في عين المرأة، حيث

صورها لسان الدين بن الخطيب بقوله: (101) الطويل

تقرُّ عن الشيبِ الغواني تعزُّزا

كما يعترِبها إن رأتُ سامَ أبرصا

بدا وَصَحاً في جدّةِ العمرِ شانياً

فمن سامَ شيخاً فهو قد سامَ أبرصا

ويشير ابن دراج إلى موقف المرأة منه بعدما أضاء الشيب

رأسه، فجعلها تنتهي عنه، الأمر الذي جعله يتحسر على

الشباب وأيام وصله للغواني واستمتاعه بهن فيقول: (102) الطويل

أضَاءَ لها فجرُ النَّهى فنَّهاها

عن الدَّنَفِ المُضْنَى بِحَرِّ هواها

وَضَلَّها صَبَحٌ جلا ليلةِ الدَّجَى

وقد كان يهديها إلي دُجاها

... فيا للشَّبابِ الغَضُّ أَنهَجَ بُزْدُه

ويا لرياضِ اللّهُو جَفَّ سَفَاها

وما هي إلا الشَّمْسُ حَلَّتْ بمفرقي

فأعشى عيونَ الغانياتِ سَنَها

وعينُ الصَّبا عارَ المشيبُ سوادها

فَعَنَ أيَّ عينٍ بعد تلكَ أراها؟

سلامٌ على شُرْخِ الشَّبابِ مُردُّ

وأهاً لوصلَ الغانياتِ وآها

ويحاول الشعراء بعد معرفتهم لموقف المرأة منهم بعد

المشيب، ورفضها لهم، وإعراضها عنهم، يحاولون أن يستجمعوا

قواهم أمامها، وذلك بلفت انتباهها إلى أشياء أخرى فيهم، غير

صورتهم التي تبدلت بعد المشيب، كتذكيرهم لها بأن هذا الشيب

جاء بعد تجارب كثيرة عاشوها في حياتهم؛ فهو من علامات

الرشد والحكمة التي ولدتها تلك التجارب، ومن ذلك قول حسان

ابن مالك: (103) الطويل

رأْتُ طالعا للشَّيبِ بَيْنَ ذوائبي

فَعادَتْ بِأسرابِ الدَّموعِ السَّواكِبِ

وقالتُ أَشيبُ؟ قلتُ صُبْحُ تجارب

أنارَ على أعقابِ ليلِ النَّوائِبِ

ويحاول محمد بن عيسى الحضرمي تهدئة من سمّاها بهند

لما بكت من ظهور الشيب في رأسه، فيلفت انتباهها إلى

الجوانب الإيجابية لهذا الشيب، ويخبرها بأنه دلالة على الرشد

والحكمة والمعرفة، فيقول: (104) الطويل

بكتُ هُندُ من ضحكِ المشيبِ بمفرقي

أما علمتُ أَنَّ الشَّبابَ خضابُ

وقالت غباراً ما أرى وتجاهلت

وليس على وجه النهار نقاب

هل الشيب إلا الرشد جلى غوابتي

فأصبحت لا يخفى علي صواب

ويحاول عمر بن أحمد بن عطيون التّجبي الطليطي أن

يخفف من روع من سمّاها أسماء لما شاهدت الشيب في رأسه

وارتاعت، فيجمل صورته في عينيها: (105) المديد

روعت أسماء أن طلعت

رائعات الشيب من شعره

لا تراعي يا أسيم لها

إنّ حُسن الرّوض في زهره

ويحاول أن يريها عدم اكترائه بذلك الشيب الذي حلّ رأسه،

ويستجمع قوته بالرّجوع إلى ماضيه وكيف كان فيه قوياً

شجاعاً، لا يهاب شيئاً، علّه بهذا يجبر النقص الذي أحدثه

الشيب في شخصيته فيقول:

لست بالباكي لمنحسره

ومريث السحب من درره

فبهرت الوحش في نفره

ويرد أبو عبد الله الرندي على تلك التي صرمته لشيبه، بأنّه

وإن كان قد شاب فإنّ لديه ما لدى الشباب من محاسن

فيقول: (106) الرمل

قلت ما ضرّك شيب فلق

بقيت فيه فكاها الصبا

هو كالعنبر غالٍ نفحة

وشذاه أخضراً أو أشهباً

ويجاهل النّباهي موقف المرأة من شيبه، حيث دعت

إحداهنّ إلى عدم الالتفات للنساء وقد شاب، وذكرته بأنّ وقت

التّصابي قد ولّى مع شبابه، فيردّ عليها منكراً موقفها ومتجاهلاً

له، وذلك لأنّه -كما قال- ما يزال قادراً على العطاء في مجال

الهنو، وأنّ لديه من القدرة ما يفوق الشباب أنفسهم،

فيقول: (107) الطويل

وقائلة لما رأته شيب لمتي

لئن ملّت عن سلمى فعذرَك ظاهر

زمان التّصابي قد مضى لسبيله

وهل لك بعد الشيب في الحبّ عاذر

فقلت لها: كلا وإن تلف الفتى

فما لهواها عند مثلي آخر

لقد لجأ الشاعر في الأبيات السابقة إلى إنكار ضعفه وعدم

قدرته على حبّ النساء ولفت انتباههن، وهو بهذا يوظف إحدى

آليات الدّفاع النفسي وهي إحدى الآليات التي يلجأ إليها

الإنسان عند إحساسه بالضعف أو العجز، وتكون بـ"إنكار

الفرد لحقيقة واضحة قائمة أمامه، ويتصرّف وكأن هذه الحقيقة

لا وجود لها" (108). ولقد بدت هذه الآلية واضحة في موقف

الشاعر السّابق، حيث أنكر أن يكون قد ضعف أو عجز عن

الحب والاستمتاع بالنساء والميل لهنّ، وقد بالغ في إنكاره هذا

إلى حدّ جعله يرى نفسه متفوّقاً في هذا الجانب حتّى على

الشباب.

لقد عبّر الشعراء في مرحلة الكبر عن استمرار إحساسهم

بالمرأة وحاجتهم العاطفية لها، فلم يكن الكبر والشيب عائقاً

أمامهم عن التّعبير عن مشاعرهم تجاهها، بل على العكس

تماماً حاولوا أن يقرّبوا إليها ويلفتوا انتباهها إلى جوانب أخرى؛

علّها تزيّنهم في أعين النساء، كما أنكروا في بعض الأحيان

ضعفهم وعجزهم بعد المشيب، وحاولوا أن يظهروا تميّزهم حتى

عن الشباب، ولكنّ مع كل محاولاتهنّ لاستمالة ودّ المرأة

وتقرّبهنّ منها، إلا أنّ محاولاتهنّ تلك لم تكن مقبولة لا من قبل

المرأة ولا المجتمع، فقد ألحوا في غير مناسبة من أشعارهم

التي وصفوا فيها هذه المرحلة، أنّ الزمن المناسب والمقبول

للعشق والتّعلّق بالمرأة هو زمن الشباب، وقد عبّروا عن هذه

الحقيقة في معرض تغنيهم بأيّام الشباب وتمنيهم رجوعها، إذ

كانت المرأة من المحاسن والمتع التي كانوا قد نعموا بها أيّام

شبابهم.

### ثالثاً: الشيب مرحلة التّوبة والإنابة والرّجوع إلى الله

لقد كانت الصّورة التي عرضناها -في الأبواب السابقة من

هذه الدّراسة- عن مرحلة الشيب قياساً بمرحلة الشباب صورة

سلبية في كثير من جوانبها، إذ كانت مرحلة الشباب هي

الأقرب من النفوس والأحب إليها، ففيها القوّة والجمال والإقبال

على الحياة، وفي المقابل كانت مرحلة الشيب والكبر مأساة

حلّت على النفوس جعلتها تفارق كل المحاسن التي كانت أيام

الشباب، لتدخل في مرحلة أخرى قوامها الضعف والألم النفسي

والعضوي، وما يترتّب على ذلك كله من دنوّ الأجل وفقدان

الأمل، ومع كلّ هذه الصّورة السلبية لمرحلة المشيب التي بدت

في الأشعار التي عرضناها إلا أنّ هناك أشعاراً أخرى تناولت

هذه الثّنائيّة الضّديّة (الشباب والشيب) من زاوية أخرى مبيّنة

لهذه الصّورة، نظرت إلى مرحلة المشيب والكبر نظرة إيجابية

مشيرة إلى ما فيها من جوانب تجعلها تفضّل مرحلة الشباب

وتكشف عمّا فيها من سلبيات، فهذه المرحلة كما أشارت

أشعارهم مرحلة النّضج والاكتمال والرّشد، في حين أنّ مرحلة

الشباب فيها الكثير من المقومات والمغريات التي تدعو للهو

والتّصابي والجري وراء متع الحياة وملذّاتها، وفيها يكون

الإنسان -في كثير من الأحيان- غير مكترث بما هو آت إلى أن يأتيه نذير الشيب، فيبدأ عندها بالتفكير فيما مضى، نادماً عليه، راجعاً إلى الله طالباً العفو والمغفرة.

ومما لا شك فيه أن هذه السمة الإيجابية التي تتشكل لدى الإنسان في هذه المرحلة لم تأت من فراغ؛ فهذه المرحلة تمثل نموذجاً مكملاً من النضج<sup>(109)</sup> وفيها " تبلور الحكمة وازدياد الخبرة والحكمة في الحياة، والتفرغ للتأمل والعبادة والنصوف<sup>(110)</sup>، وتشكل هذه الجوانب الإيجابية خلاصة ما توصل إليه الإنسان من الخبرة والحكمة والموعظة التي خرج بها من التجارب والمواقف التي مرت به في مسيرة حياته السالفة، الأمر الذي يجعله أكثر قدرة على التمييز بين الخطأ والصواب، ومراجعة الذات وتقييم سلوكها، والسعي نحو تحقيق كل ما يحقق لها ما تحتاجه في هذه المرحلة من الأمن والاستقرار النفسي، وجبر النقص الذي يشعر به سواء أكان من الناحية البدنية أو من الناحية النفسية والاجتماعية، ومحاولة تدارك ما فاتته من تقصير أيام شبابه، لا سيما من الناحية الدينية؛ فالعمر قد تولى به والشعور باقتراب النهاية بدأ يسيطر عليه، لذا نجده في هذه المرحلة" يبدأ يعيش في رحاب الله يسعى في طمأنينة العابد وسكينة المؤمن ويتسامى بنفسه إلى آفاقها الروحية، ومجالها الصوفي، وهناك يقف من بعيد لينظر إلى الحياة كلها موسومة بالخير والتسامح لا التواء فيها وتكليف وخاصة عندما يشعر باقتراب أجله<sup>(111)</sup>.

ولقد صور الشعراء الأندلسيون هذا الجانب من جوانب مرحلة الكبر تصويراً واضحاً، وصفوا فيه الدوافع التي جعلتهم ينحون هذا المنحى في سلوكهم، فينظرون إلى ما في الشيب والتقدم في العمر من تغيرات نفسية وجسمية نظرة إيجابية تلفت انتباههم نحو الوقاء والحكمة والتقرب إلى الله -تعالى-، فعبّرت فيما عبّرت عنه عن قناعة الإنسان بعد الكبر أن لكل مرحلة من مراحل الحياة ما يميزها ويناسبها من سلوكات، فما كان أيام الشباب غير صالح ولا مجد -في كثير من الجوانب- بأن يحمله الإنسان معه إلى مرحلة الكبر، فهذا أبو محمد بن حزم يقرّ بعد ظهور الشيب في رأسه بهذه الحقيقة، فيرى أن أيام الشباب وقت للهو وإذا ما جاء المشيب فلا وقت للهو واللعب، وإنما الوقت للجد والعمل، فيقول: <sup>(112)</sup>الطويل

ولما رأيت الشيب حلّ مفارقي

نذيراً بترحال الشباب المفارق

رجعتُ إلى نفسي فقلتُ لها انظري

إلى ما أتى هذا ابتداء الحقائق

دعي دَعَوَاتِ اللهو قد فاتت وقتها

كما قد أفات الليل نور المشارق

دعي منزل اللذات ينزل أهله

وجدي لما ندعى إليه وسابقي

وهذا الفقيه أبو محمد عبد الله الوحيدي بعد أن كان أيام

شبابه يرخي العنان للتصايب والنساء يتحول بعد المشيب عن

ذلك؛ وذلك لأنه صار على يقين بأن لكل وقت ما يناسبه،

فيقول: <sup>(113)</sup>الخفيف

ذاك وقت قضيت فيه غرامي

من شبابي في ستر الإظلام

ثم لما بدا الصباح لعيني

من مشيبي ودعته بسلام

ويتضح هذا الموقف جلياً عند المطرف، حيث يقرّ بأن

الشيب لا يجتمع واللهو والتصايب، فهذه أحوال مضت مع وقت

الصبا الوقت الملائم لها، فيقول: <sup>(114)</sup>الخفيف

إن شيباً وصبو لمحال

قد أنى أن يكون عنها زوال

ركب الشيب لمتي خلل الشع

ر لوقتٍ حالت به الأحوال

فدع النفس عن مزاج ولهو

تلك حال مضت وجاءت حال

وهذا لسان الدين بن الخطيب يطرح بعد مفارقة الشباب ما

كان عليه من غزل وتشبيب، فيقول: <sup>(115)</sup>الكامل

رحل الصبا فطرخت في أعقابها

ما كان من غزلٍ ومن تشبيب

أترى النعزل بعد أن رحل الصبا

شأنى الغداة إذ المشيب نسيبي

ومما يعزز هذه الفكرة في نفس الكبير في السن أن

المجتمع والناس من حوله ينظرون له نظرة وقار واحترام، فلا

يقبلون منه ما كانوا يقبلونه وقت الشباب، وصاروا يعيرون عليه

اقتراف ما لا يناسب، ويوجهون له اللوم والعتاب، فلقد أضحي

خطؤه غير مغفور، وعليه يلام ويحاسب، ويعبر مالك بن عبد

الرحمن بن الفرج عن تعرضه للوم والمعاتبة على تغزله بعد أن

شاب، فيقول: <sup>(116)</sup>البسيط

قالوا كبرت ولم تبرح كذا غزلاً

أزرى بك الفاضحان الشيب والغزل

ويشير أبو إسحق الإلبيري إلى عدم تقبل اللهو من الكبير،

ويصفه بالقبح، فيقول واعظاً نفسه: <sup>(117)</sup>الكامل

الشيب نية ذا الهوى فتنبها

ونهى الجهول فما استفاق ولا انتهى

فالإلى متى ألهو وأخدع بالمنى

والشيخ أقبح ما يكون إذا لها

ويُلام أبو يحيى أبو بكر بن هشام على التصابي والشراب  
بعد أن كبر وشاب، وعن هذا يعبر بقوله: (118) الكامل  
لاموا على حب الصبا والكاس

لما بدا وضح المشيب براسي  
ويلوم أحمد بن محمد بن جزي الكلبى نفسه بعد أن شاب  
مفارقة على فعل ما يليق بذى الشيب فيقول: (119) الطويل  
أشبخاً وتأتي فعل من كان عمره  
ثلاثين شهرا في ثلاثة أحوال  
وتشغفك الدنيا وما أن شغفتها

كما شغف المهنة الرجل الطالي  
ولأن ما يناسب وقت الشباب من أفعال ومطالب يختلف  
عما يناسب وقت المشيب، ولأن المجتمع لا يقبل من الكبير ما  
يقبله من الشباب وقت صباهم، نجد أن الكبير في السن بعد  
ظهور الشيب في رأسه ينظر لنفسه بعين الرقيب التذير، فيأخذ  
بزجرها ونهيها إذا ما حاولت أو حتى فكرت في أن تحيد عن  
الصواب، فنجده بمجرد ظهور الشيب في رأسه يلبس عباءة  
الحكماء، فيأخذ بالوعظ والإرشاد؛ وذلك لأسباب عدة منها كما  
أسلفنا ما يناسب هذه المرحلة من الوقار والاتزان في السلوك،  
ونظرة المجتمع لذي الشيب وعدم تقبل الخطأ والزلل منه، كما  
أن هناك أسباباً أخرى تفرضها طبيعة هذه المرحلة سنعرض لها  
لاحقاً.

ومن الأشعار التي أخذ فيها الشعراء بوعظ أنفسهم وزجرها  
عما لا يليق بهذه المرحلة العمرية من أفعال، قول محمد بن  
أحمد التجيبي: (120) مجزوء الرجز

يا نفس جدي قد بدا الصد  
واتعطي بمن مضى  
ما بعد شيب الفؤد من  
أنت وإن طال المدى  
وليس من غدر يق  
يحُ ألا فاعتبري  
وازندعي وازدجري  
مرتقب فشمرى  
في قلعة أو سقر  
يم حجة المعتذر

وهذا أبو جعفر المعافري يغالب الهوى ولا يلتفت له،  
مصغياً للشيب داعي الرشد والنصح، فيعرض عن إغراء  
إحداهن له بأن يخضب شعره بعد أن ظهر فيه الشيب، ويردّ  
طلبها زاجراً هواها، ومبيناً لها أن الشيب وقار لا يريد أن يقبحه  
بالخضاب، فيقول: (121) الطويل

أقول لها من بعد ما كدت للهوى  
أميل وأعصي داعي الرشد والنصح  
إليك فهذا الشيب أوضح صبحه  
وقد أوجب الإمساك متضح الصبح  
فصدت وأغرث بالخضاب لعلها  
تسوم دليل الحكم يوماً من القدح

فقلت كفى بالزور في الوجد شاهداً  
يحطّ جميلاً في الوقار إلى قبح  
وهذا ابن خاتمة يزجر نفسه بالشيب، ويدعوها لاتباع الهدى  
والصواب، ويلومها على إتيان ما لا يليق بهذه المرحلة من  
اللهو والحب والعصيان.. وغيرها، فيقول: (122) الطويل  
تروم رضاهم ثم تأتي المناها

أحب وعصيان؟ لقد ظلت لاهيا  
جمعت عيوب الرد (123) كبرا وكبرة  
وماذا يساوي من تحلى المساوي  
أما أبصرت عينك للحق مُرشداً  
أما سمعت أذنك الله داعيا  
أبعد مشيب تستجد شبيبة

وبعد هدى تبغي عمى أو تعاميا  
لقد صاح داعي الرشد لو أن سامعا  
ولاح صبايح الحق لو أن رائيا  
ويزجر علي بن عمر بن أضحى الهمداني نفسه بعد  
المشيب، ويعيب عليها ارتكاب ما لا يليق بها في هذا العمر  
من لهو ومعاص، ويهددها بالندم إن لم تنب من قريب،  
فيقول: (124) مخلع البسيط

علي قد أن أن تتوبا  
شبت وما ثبت من بعيد  
تركب للهو والمعاصي  
ويعظ أحمد بن محمد ابن جزي الكلبى نفسه بالشيب،  
ويصف أثره الإيجابي في تقويم سلوكه بعد المشيب،  
فيقول: (125) الطويل

أما واعظي شيب سما فوق لمتي  
سوم حباب الماء حالا على حال  
أنار به ليل الشباب كائه  
نهامي عن غي وقال منبها

ألسنت ترى السمار والناس أحوال  
وها هو يقر بأنه لا يليق به وقد شاب وكبر أن يلهو،  
فيزجر نفسه عن فعل ما لا يليق، وإن تنحى في سلوكها منحى  
من هم دونها سناً وقدرًا:  
أغالط دهرى وهو يعلم أنني

كبرت وأن لا يحسن اللهو أمثالي  
ومؤنس نار الشيب يقبح لهوه  
بأنسة كأنها خط تمثال  
أشبخاً وتأتي فعل من كان عمره  
ثلاثين شهراً في ثلاثة أحوال

لقد كان الرجوع إلى الله -تعالى- والتَّوَقُّبُ إليه بالتَّوْبَةِ والأعمال الصَّالحة، والتَّعبير عن النَّدَم على ما فات من تقصير أيام الشَّباب من الجوانب الإيجابية التي ظهرت واضحة في الأشعار التي صَوَّر فيها الشَّعراء الأندلسيون حالهم في مرحلة الكبر والمشيب، ولعلَّه ليس من الغريب على الإنسان أن ينحو هذا المنحى بعد كبره، وذلك -كما تقدَّم- للمعاناة التي يجدها بعد أن يفارق شبابه، إذ تضعف قدرته، ويصبح تحت رقابة الآخرين من حوله، إذ يترصدون لسلوكه وتصرفاته، فلا يقبلون منه إلا ما يليق بالإنسان الكبير من الوقار والأتزان والاحتشام هذا من جهة، ومن جهة ثانية يصبح إحساس الإنسان في هذه المرحلة بقرب الموت، فلا يجد أمامه مع كلِّ هذه التَّحوُّلات والمخاوف التي يعيشها إلا أن يلجأ إلى الله -تعالى- علَّه يغفر له ما فات ويصلح له ما هو آت.

ومن الأمثلة على الأشعار التي تصوِّر النَّدَم على ما فات من تقصير أيام الشَّباب، واللجوء إلى الله -تعالى- طلباً للتَّوْبَةِ والمغفرة بعد المشيب قول محدَّد بن علي بن خضر هارون الغساني: (126) الطَّويل

أطعتُ الهوى حتَّى خُدعتُ ومن يطع

هوى النَّفس يخدعه كخدع المُمادق (127)

كانَ (\*) جميعاً إذ سقاه حِمَامَه

بكأس حَقاق خَرَّ من رأس حَالِقٍ

فيا نَفْسُ كَفَيَّ قد بلغتِ بي المدى

أما لكِ بَعْدَ الشَّيْبِ توبَةٌ صادق

ويا ربَّ عفواً إِنِّي منك واثقٌ

بمَنْ على عَبدٍ بجودك واثقٌ

ويصرِّح محمد بن العلوي عن تقصيره أيام شبابه، ويتألَّم على نفسه، ويخاف عليها من العذاب، ملتئماً من الله -تعالى- العفو، فيقول: (128) البسيط

لهفي أرى الحال مَنِّي غير صالحةٍ

وقد مضى وتولَّى صالح العُمَرِ

هَبْنِي عَصِيَّتُكَ يا مولاي في صغري

جهلاً فما العذر في العصيانِ في الكبر

لئن عفوتْ فأفضال ومكرمةٌ

وإن تعاقبتْ فَإِنِّي بالعقابِ حَرِي

ويعبّر أحمد بن وكيل التَّجِيبِي عن ألمه وأسفه على ما مضى من تقصير أيام شبابه، ويصوِّر أثر الشَّيْب فيه، وكيف دعاه إلى مراجعة ذاته ومحاسبتها وحثَّها على النَّدَم والبكاء على ما فات، تعبيراً عن التَّوْبَةِ والإنابة، فيقول: (129) الطَّويل

وجاء المشيب المنذر المرء أنَّه

إذا رحلتْ عنه الشَّيْبَةُ تالفٌ

فيا أحمد الخَوَّان قد أدبر الصِّبَا

وناداك من سنِّ الكهولة هاتِفٌ

فهل أَرَقَّ الطَّرْفَ الزَّمانُ الذي مضى

وأبكاهُ ذَنْبٌ قد تقدَّمَ سالفٌ

فجُد بالدموعِ الحمر حزناً وحسرةً

فدمعك يُنبِي أن قلبك آسفٌ

ويوضِّح أبو الحسن علي بن حمدون المَسَوِّغات التي تجعل الإنسان يرجع إلى الله عند كبره، فيشير إلى أنَّ ذهاب الشَّباب أمر لا بدَّ منه، وأنَّ رجوعه مستحيل، لذا فعليه أن يدع الشَّهوات، وينوي التَّوْبَةَ والرجوع إلى الله، فيقول: (130) الطَّويل

مضى زمني والشَّيْبُ حلَّ بمفرقي

وأبعدُ شيء أن يُردَّ شبابُ

إذا مرَّ عمرُ المرء ليس براجعٍ

وإن حلَّ شَيْبٌ لم يُفدِه خضابُ

فحلَّ حمام الشَّيْبِ في فَرْقٍ لَمَتِي

وقد طار عنها للشَّبابِ غرابُ

فدغَّ شَهواتِ النَّفسِ عنك بمعزل

فعدَّبُ اللَّيالي مقتضاه عذاب

ويصوِّر ابن خميس إقباله على الله -تعالى- بعد مضي شبابه، ويعاتب نفسه على ما كان من تقصير في تلك الأيام، ويعلن توبته وإنابته إلى الله، فيقول: (131) الطَّويل

أُنَبِّتُ ولكنَّ بعد طولِ عتابٍ

وفرطُ لجاجٍ ضاع فيه شبابي

وما زلتُ والعلِياءُ تُعني غريمها

أعلُّ نفسي دائماً بِمَتَّابٍ

ويصوِّر الشَّيْخُ أبو زكريا السَّراج كيف غيَّر الشَّيْب سلوكه، وجعله على يقين بأنَّ الحياة فانية، وأنَّه لم يبق له إلا أن يبادر بالرجوع إلى الله تعالى بالطَّاعة، وطلب العفو والمغفرة، فيقول: (132) الطَّويل

نهالك نذيرُ الشَّيْبِ لو كنت ترعوي

وهل بعد إنذارِ المشيبِ نذير

أرى العَمَرَ وَلَيَّ مُعرضاً عنك فاغتَنمُ

بِقِيَّتِهِ إن البقاء عسير

وبادرُ إلى الطَّاعاتِ غيرَ مقصَّر

فأطولُ أَيَّامِ الحياةِ قصير

إلهي أَجْزني من عذابك إنَّه

عَذابُكَ محذورٌ وأنت مجبر

ولا تُخزني يومَ الحسابِ ونَجْني

بِفَضْلِكَ إن الفضل منك كبير

بالتأنيح التي خلصت إليها الدراسة بعد تحليل هذه الأشعار فيمكننا إجمالها بالنقاط الآتية:

1- قدمت الأشعار التي تحدث فيها الشعراء الأندلسيون عن مرحلة الشباب صورة جميلة لهذه المرحلة، بدا فيها إحساسهم بتميزها عن مراحل الحياة كافة، فهي مرحلة القوة والحيوية والإقبال على الحياة، وهي المرحلة المناسبة لأن يستمتع فيها الإنسان بكل مباحج الحياة.

2- لم تنحصر الأشعار التي صور فيها الأندلسيون مرحلة الشباب في موضوع بعينه، أو في مرحلة عمرية محددة، وإنما جاء تصويرهم للشباب في معرض موضوعاتهم الشعرية الأخرى: الغزل، والمدح، والحنين للماضي، والتشوق للوطن... وقد اختلفت المراحل العمرية التي نظموا فيها هذه الأشعار، فمنها ما قالوه في مرحلة الشباب نفسها، ومنها ما قالوه في مراحل متأخرة من حياتهم.

3- لم يأت حديثهم عن الشباب في كثير من الأحيان مستقلاً عن الشيب والكبر، وإنما كثيراً ما كانوا يعرضون لهما معاً مفضلين الشباب ومقدمين له على الشيب.

4- صورت الأشعار التي تناولت مرحلة الكبر والتقدم في العمر المعاناة التي يجدها الإنسان فيها، وما لها من أثر سلبي في نفسيته، وبنية البدنية، وما يترتب على ذلك من تحولات وتغيرات في طبيعة حياته بصورة عامة.

5- عبرت الأشعار التي اشتمت فيها الشعراء الأندلسيون عن الشيب والكبر عن موقفهم من مرحلة الشباب وحنينهم لآيامه، وتمنيهم رجوعها، كما صورت المعاناة التي يجدها من ضعف قواهم الجسمية والذهنية في بعض الأحيان، وما يترتب على ذلك من صعوبة الحركة والانعزال عن الآخرين، كما صورت إحساسهم بقرّب الموت وانظاره، الأمر الذي يزيد من الألم والمعاناة التي يعيشونها في هذه المرحلة.

6- بينت الأشعار التي تناولت مرحلة الكبر والشيب موقف المرأة من الزجل في هذه المرحلة، فكانت رافضة له ومعرضة عنه لشبيهه، في حين أن إحساس الرجل بالمرأة وحاجته إليها وهو في هذه المرحلة لا يزال موجوداً، وقد حاولوا التقرب منها وتزيين أنفسهم في عيناها بعد الشيب، وذلك من خلال لفت انتباهها إلى جوانب أخرى من شخصيتهم، كتذكيرهم لها بماضيهم وكيف كانوا فيه أقوياء أشداء حققوا فيه الكثير من المفاوز والانتصارات، أو بالحديث عن جانب النضج والوعي عندهم وما يتصفون به من حكمة ووقار، وكانوا في بعض الأحيان ينكرون تقدمهم في العمر وأن يكون شبيبهم علامة عجز وكبر، فهم مع ظهوره في رؤوسهم ما يزلون بقوة الشباب وحيويتهم.

ويتخذ ابن عبد ربه من الشيب وما يترتب عليه من دنو الأجل وسيلة يزر بها نفسه عن اقتراف المعاصي، وينهاها عن البعد عن الملذات، ويخاطب من كان غافلاً بقوله: (133)

البسيط

يا راقداً ليس يعفو حين يقتدر

ماذا الذي بعد شيب الرأس تنتظر

عائناً بقلبك إن العين غافلة

عن الحقيقة واعلم أنها سقر

سوداء تفر من غيظ إذا سمرت

للظالمين فلا تبقي ولا تذُر

لو لم يكن لك غير الموت موعظة

لكان فيه عن اللذات مُردجُر

وينيب ابن خاتمة إلى الله -تعال- بعد المشيب، ويصرح بسوء أفعاله أيام شبابه، متأسفاً على مضى منه، طالباً من الله - تعالى- العفو وستر ما كان له من العيوب، فيقول: (134)

الطويل

شباب مضى لم أحل منه بطائلي

فيا ليت شعري كيف بالشيب حاليا

وما أسفي أن مر ما مر فائقضي

ولكن همي ما بقي من زمانيا

فقد فتح الرحمن أبواب عفو

لمن راجع الذكرى وأقبل خاشيا

إلهي والشكوى إليك استراحة

فأنت إلى الشاكي أشد تدانيا

إلهي لا تقض عوارا سترته

فما لي مأمول سواك إلهيا

لقد تبين من المقطوعات السابقة أن الإنسان بعد المشيب يقف مع نفسه وقفة المتأمل فيما سلف من أيام شبابه، فيحاسبها على ما كان منها من تقصير ولهو، وينظر من حوله فلا يجد أمامه سبيلاً إلا الرجوع إلى الله -تبارك وتعالى- بالنوبة والإنابة والتندم على فات، وطلب المغفرة، والسعي نحو كل ما يقربه من رضاه جلّ وعلا، والفوز بالجنة والنجاة من النار.

### الخاتمة

تناولت الدراسة الأشعار التي وصفت مرحلتَي الشباب والشيب في بابين أساسيين، فعرضت في الباب الأول للأشعار التي وصفت مرحلة الشباب وموقف الإنسان منها سلبي وإيجاباً، وتناولت في الباب الثاني الأشعار التي وصفت مرحلة المشيب والكبر وموقف الإنسان منها سلبي وإيجاباً، وذلك بتحليل مضامين تلك الأشعار موضوعياً ونفسياً. وأما فيما يتصل

والندم على ما فات من أعمال لا ترضيه -جلّ وعلا- ومحاولة استثمار ما بقي لهم من حياة في الطاعة والعبادة.

بينت الأشعار التي وصفوا فيها مرحلة الشيب والكبر أنّ هذه المرحلة مرحلة التوبة والإنابة والرجوع إلى الله تعالى،

### الهوامش

- (32) ابن سعيد، المغربي، المغرب في حلى المغرب، ج2، ص28.
- (33) ابن زيدون، الديوان، ص113.
- (34) ابن حيّان، الديوان، ص290.
- (35) الشنتريني، ابن بسّام، الذخيرة، ج1، ص391.
- (36) المصدر نفسه، ج2، ص114.
- (37) المقرّي، نفح الطيّب، ج4، ص150.
- (38) ابن خفاجة، الديوان، ص32.
- (39) الإسطحلة: واحدة الإسل: شجر تتخذ منه المساويك.
- (40) الشنتريني، الذخيرة، ج3، ص446/445.
- (41) المصدر نفسه، ص631.
- (42) ابن سعيد، المغرب، ج2، ص320.
- (43) ابن الخطيب، الكتيبة الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ص47.
- (44) ابن هانئ الأندلسي، الديوان، ط1، ص178.
- (45) الشنتريني، ابن بسّام، الذخيرة، ج1، ص364.
- (46) ابن دراج، الديوان، ط1، ص60.
- (47) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ط1، ج3، ص471.
- (48) الشنتريني، الذخيرة، ج1، ص572.
- (49) المصدر نفسه، ج2، ص422.
- (50) المصدر نفسه، ج3، ص463.
- (51) ستم الإشارة لهذه الأشعار عند دراسة الأشعار التي وصفت مرحلة المشيب.
- (52) المصدر نفسه، ج3، ص412.
- (53) المقرّي، نفح الطيّب، ج5، ص81.
- (54) ميلادي، الأبعاد النفسية للمسّن، ص26.
- (55) الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج4، ص229.
- (56) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج2، ص226.
- (57) المقرّي، نفح الطيّب، ج6، ص81.
- (58) المصدر نفسه، ص474.
- (59) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج2، ص269. في بعض هذه الأبيات كسر في الوزن الشعري هكذا ذُكرت في المصدر.
- (60) ابن الأبار، الحلة السّراء، ط2، ج1، ص235.
- (61) ابن هانئ، الديوان، ص85.
- (62) الأملود: اللين الناعم.
- (63) الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج1، ص668.
- (64) المقرّي، نفح الطيّب، ج5، ص366.
- (65) ابن دحية، ذو النسيبين أبو الخطاب عمر بن حسن، المطرب

- (1) زهران، التّوجيه والإرشاد النفسي، ط3، ص417.
- (2) الحاكم، المستدرك، المجلد الرابع، ص306.
- (3) زهران، التّوجيه والإرشاد النفسي، ص418.
- (4) المتنبّي، الديوان، ج2، ص336.
- (5) التّرمذي، الجامع الصّحيح، الجزء الرابع، ص390.
- (6) التّرمذي، الجزء الرابع، ص394.
- (7) حمدي، الإرشاد والتّوجيه في مراحل العمر، ط2، ص457.
- (8) يُنظر تفصيل هذه المشكلات في: التّوجيه والإرشاد النفسي، ص419/418.
- (9) المرجع نفسه.
- (10) الميلادي، الأبعاد النفسية للمسّن، ص10.
- (11) فهمي، الرّعاية الاجتماعيّة لكبار السّن، ص82.
- (12) المرجع نفسه، ص83.
- (13) زهران، التّوجيه والإرشاد النفسي، ص426.
- (14) ... ينظر تحريجه في موسوعة أطراف الحديث النبوي الشريف، ج3، ص223. وقد ذكره العجلوني في كتاب كشف الخفاء ومزيل الإلباس عمّا اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، ط2، ج1، ص244 (برقم 741)، وقرّر في سنده ضعف.
- (15) التّووي، رياض الصّالحين، ص191.
- (16) الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ط1، ج3، ص497.
- (17) المقرّي، نفح الطيّب من غصن الأندلس الرّطيب، ج2، ص527.
- (18) المصدر نفسه، ج5، ص371.
- (19) الأجين: المتغيّر طعمه.
- (20) الرّدخ: الرّدع.
- (21) أحد ملوك الفرس.
- (22) المقرّي، نفح الطيّب، ج6، ص231.
- (23) المرجع نفسه، ج7، ص130.
- (24) المرجع نفسه، ج7، ص184.
- (25) ابن الأبار، تحفة القادم، ط1، ص14.
- (26) وامق: مُحبّ، يُنظر باب ومق لسان العرب.
- (27) تَبَوَّجَ البرق: لمع وتكشف.
- (28) ابن خفاجة، الديوان، ص36.
- (29) ابن الخطيب، الديوان، ج1، ص301.
- (30) ابن الأبار، الديوان، ص60.
- (31) المرجع نفسه، ص414.

- (102) الديوان، ص 11/10.
- (103) التفتح، ج3، ص 549.
- (104) الشنتريني، النخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج2، ص 556.
- (105) المصدر نفسه، ج3، ص 582.
- (106) المقرّي، نفح الطيب، ج3، ص 436.
- (107) المصدر نفسه، ج6، ص 120.
- (108) أبو أسعد، وعربيات، نظريات الإرشاد النفسي والتربوي، ط1، ص 27.
- (109) سيلاي، المعجم الموسوعي في علم النفس، ج3، ص 1451.
- (110) نزيه، وأبو طالب، الإرشاد والتوجيه في مراحل العمر، ط2، ص 85.
- (111) الصاوي، الحاجات النفسية للمتقاعدين، ص 32، عن: قناوي، سيكولوجية المسن، ص 70. مصر، الجيزة.
- (112) المقرّي، نفح الطيب، ج3، ص 67.
- (113) المصدر نفسه، ص 391.
- (114) ابن الأثير، الحلة، ج1، ص 130.
- (115) الديوان، ص 128.
- (116) المصدر نفسه، ج3، ص 312.
- (117) المقرّي، نفح الطيب، ج4، ص 318.
- (118) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج1، ص 74.
- (119) ابن الخطيب، لسان الدين، الإحاطة، ج1، ص 160.
- (120) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج3، ص 115.
- (121) ابن الخطيب، لسان الدين، الكتيبة الكامنة، ص 109.
- (122) الديوان، ص 11.
- (123) في هامش الديوان الزديء.
- (124) ابن الأثير، الحلة، ج2، ص 217.
- (125) ابن الخطيب، لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج1، ص 160.
- (\*) هكذا وردت هذه الكلمة في المصدر.
- (126) ابن خميس، أدباء مالقة، ص 180/181.
- (127) المماذك: الكذوب/ غير المخلص. يُنظر مادة مذق لسان العرب
- (128) المصدر نفسه، ص 306.
- (129) المقرّي، نفح الطيب، ج2، ص 600.
- (130) المصدر نفسه، ص 6010/609.
- (131) المصدر نفسه، ج5، ص 366.
- (132) ابن الخطيب، لسان الدين، الكتيبة الكامنة، ص 125.
- (133) المقرّي، نفح الطيب، ج7، ص 53.
- (134) الديوان، ص 14.
- من أشعار أهل المغرب، ص 117.
- (66) الشنتريني، ابن بسم، النخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج1، ص 664.
- (67) المصدر السابق، ج2، ص 338.
- (68) المصدر السابق، ج4، ص 390.
- (69) ابن خفاجة، الديوان، ص 157/156.
- (70) ابن الأثير، تحفة القاد، ص 33.
- (71) ابن خميس، أدباء مالقة، ط1، ص 186.
- (72) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب: ج1، ص 407.
- (73) ابن دحية، المطرب من أشعار أهل المغرب، ص 80.
- (74) المقرّي، نفح الطيب، ج4، ص 117.
- (75) ابن حيان، الديوان، ص 88.
- (76) ابن بسم، النخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج3، ص 248.
- (77) ابن خفاجة، الديوان، ص 234.
- (78) ابن الخطيب، لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج3، ص 317.
- (79) ابن خفاجة، الديوان، ص 269.
- (80) ابن الأثير، تحفة القاد، ص 100.
- (81) المصدر نفسه.
- (82) المقرّي، نفح الطيب، ج7، ص 47.
- (83) بغية الملتمس، ص 273.
- (84) المصدر نفسه، ص 544.
- (85) المقرّي، نفح الطيب، ج5، ص 442.
- (86) ابن الخطيب، الكتيبة الكامنة، ص 106.
- (87) ابن اللبانة، الديوان، ط2، ص 140.
- (88) ابن الخطيب، الكتيبة الكامنة، ص 39.
- (89) الميلادي، الأبعاد النفسية للمسن، ص 24.
- (90) ابن الأثير، تحفة القاد، ص 181.
- (91) المرجع نفسه، ص 182.
- (92) ابن خاقان، قلائد العقيان ومحاسن أهل الزمان، ج4، ص 710.
- (93) الديوان، ص 77.
- (94) الديوان، ص 186.
- (95) كذا في الديوان
- (96) المقرّي، نفح الطيب، ج2، ص 257.
- (97) ... بغية الملتمس، ص 501.
- (98) الشنتريني، النخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج1، ص 691.
- (99) المقرّي، نفح الطيب، ج3، ص 435.
- (100) ابن الخطيب، الكتيبة الكامنة، ص 62.
- (101) المقرّي، نفح الطيب، ج6، ص 465.

## المصادر والمراجع

- ابن الآبار، أبو عبد الله محمد، تحفة القادِم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، أعاد بناءه وعلّق عليه إحسان عباس، 1986.
- ، الحلة السّرياء، تحقيق حسين مؤنس، 1985، دار المعارف، القاهرة، ط2.
- أبو أسعد، أحمد، وعربيات، أحمد، 2001، نظريات الإرشاد النفسي والتربوي، دار المسيرة، عمان.
- الترمذي، الجامع الصحيح، تحقيق مصطفى محسن حسين الذهبي، دار الحديث القاهر.
- الحاكم، أبو عبد الله بن البيّع المستدرک، 7846 المجلد الرابع، ص 306، تحقيق محمد أمين مكتب المطبوعات الإسلامية، لبنان بيروت.
- حمدي، نزيه عبد القادر، الخطيب جمال، الإرشاد والتّوجيه في مراحل العمر، منشورات جامعة القدس.
- ابن خاقان، الفتح، قلائد العقيان ومحاسن أهل الزّمان، مكتبة المنار، تحقيق حسين خريوش.
- بن الخطيب، لسان الدّين، ابن الخطيب، لسان الدّين، الإحاطة في أخبار غرناطة، مكتبة الخانجي، القاهرة، تحقيق محمد عبد الله، 1975م، عنان، ط1.
- الديوان، دار الثقافة، الدّار البيضاء، تحقيق: محمد مفتاح.
- الكتيبة الكامنة في أعيان المائة الثّامنة، دار الثقافة، بيروت.
- ابن خميس، أبو بكر محمد بن علي، أدباء مالقة، دار البشير، عمان، مؤسسة الزّسالة، بيروت، تحقيق: صلاح جرّار، 1999م، ط1.
- ابن دحية، ذو النسيبين أبو الخطاب عمر بن حسن، المطرب من أشعار أهل المغرب، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1954، تحقيق: إبراهيم الأبياري وآخرين
- ابن دراج، الديوان، منشورات المكتب الإسلامي، دمشق، تحقيق
- محمود علي مكي، 1961، ط1.
- زهران، حامد عبد السلام، 1985م، التّوجيه والإرشاد النفسي، عالم الكتب، القاهرة، ط3، ص 417.
- ابن زيدون، الديوان، دار صادر، بيروت، تحقيق كرم البستاني
- ابن سعيد، المغربي، المغرب في حلى المغرب، دار المعارف، مصر، تحقيق شوقي ضيف، طبعة ثانية منقّحة، ج2، ص28.
- سيلاي، نوربير، المعجم الموسوعي في علم النّفس، ترجمة وجيه أسعد، 2001، منشورات وزارة الثقافة، سوريا.
- الشّنتريني، ابن بسّام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، تحقيق إحسان عباس، 2000، ص 497.
- الضّبي، أحمد بن يحيى، بن أحمد (ت599هـ)، بغية الملتبس، دار الكاتب العربي، القاهرة، 1967م.
- فهمي، محمد سيد، 1995م، الرّعاية الاجتماعيّة لكبار السّن، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندرية.
- ابن اللبّانة، الديوان، ط2، جمع وتحقيق: محمد مجيد السّعيد، 2008، ص 140.
- المنتبي، أحمد بن الحسين، الديوان، دار الفكر، الطبعة الأخيرة، تحقيق مصطفى السّقا وآخرين.
- المقرّي، أحمد التّلمساني، نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب، دار صادر، بيروت، 1997
- الميلادي، عبد المنعم، 2006، الأبعاد النفسيّة للمسن، مؤسّسة شباب الجامعة،
- ابن منظور، جمال الدّين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1990م، ط1.
- ابن هانئ الأندلسي، الديوان، دار المعرفة، بيروت، تحقيق حمدو أحمد طمّاس، ط1، 2005.
- هدى محمد، 1987، سيكولوجيّة المسنّ، ص70. مصر، الجيزة، مركز التنمية البشريّة والمعلومات.

## Young and Old Age in the Poetry of Andalusia: A Psychological Objective Study

*Raghda Zboon\**

### ABSTRACT

The paper aimed to understand the images of both the young and the old in the poetry of Andalusia. It aimed to study the poetry that tackled this topic, analyzing it objectively and psychologically. It showed that each stage has its own features that distinguish it from the other stage from the physical, psychological, and social perspectives. The poetry of the young has a lot of optimistic incentives that make a person open to life, fond of it trying to achieve what is aspired for of hopes and anticipations. On the other hand poetry of the old is full of complaints, expressing what a person suffers in this stage of physical, psychological, and social complaints. For this reason, we find poets comparing these two stages favoring young age over the old and hoping that days would go back so that they would relive young age for ever. The hardest difficulties that poets complained of were their body weaknesses, inability to work, their being rejected by women due to weakness and old age, in addition to their fear of the approaching death. Their poetry showed their attempt to come close to God, their reflection upon their past and their censuring themselves for the short comes, warning of their approaching end, and using grey hair as a device to prevent themselves from doing whatever is inappropriate for this age, calling upon themselves to repent and plead to Allah for forgiveness.

**Keywords:** Old, Young, Poetry of Andalusia.

---

\* The World Islamic Sciences and Education University, Jordan. Received on 10/7/2013 and Accepted for Publication on 1/10/2014.